معالم البيان في الحديث النبوي

د. عبدالمحسن بن عبدالعزيز العسكر
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يرمي هذا البحث إلى الكشف عن الخصائص البلاغية للحديث النبوي الشريف، الذي بلغ الذروة في البيان الإنساني، بدءا من المقومات الأولى التي أفاء الله بها على نبيه صلى الله عليه وسلم من أسباب الفصاحة، ثم نظرا في الحديث نفسه، لاستجلاء ما ينطوي عليه بناؤه من سمات الكمال وآيات الجمال، ورصدا لما دونه علماء المعاني وشراح الحديث وعلماء العلل من الصوى والمعالم البيانية التي تجلت في كلام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وفي خطابه التشريعي خاصة، وهو الخطاب الذي جاء على سمت من النظم لم يسبق له مثيل في تاريخ العربية.

المقدمة :

الحمد لله على ما أفاء من الخير وهدى للإيمان، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله المؤيد بالفرقان وفصيح البيان، وعلى آله وأصحابه الذين عزَّروه ونصروه باللسان والسنان، وعلى السالكين آثارهم والمتبعين لهم بإحسان.

أما بعد: فإن الله جل وعلا بحكمته البالغة وفضله قد اصطفى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لرسالته، وخصه بكتابه، ونصبه لبيانه، ومنحه من المعجزات والخصائص ما لم يكن لأحد من الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام، ومن ذلك ما آتاه الله من جوامع الكلم وفصيح القول، ليؤدي عن ربه، ويبلغ البلاغ المبين، والحديث النبوي هو ثاني مصدري التشريع في دين الإسلام، فهو مفصل لمجملات القرآن، ومؤكد لما جاء به من المعاني والحكم.

ولقد اجتمعت لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام أسباب الفصاحة كلها، وانقادت له أزمة البيان، وصار حديثه على وجه الدهر بلاغة خالدة تضرب بها المثل، وحكمة سائرة تتوق لها القلوب والمقل.

وكان حديثه ﷺ طرازا فريدا جمع بين سمو الغايات، وفخامة المعاني، ووضوح الأفكار، وجمال التعبير، مع الإيجاز وحسن الاختيار في الألفاظ.

وقد جاء هذا البحث مجليا ـ ما اسطاع ـ المعالم البيانية والخصائص البلاغية التي يقوم عليها نظم الحديث الشريف، كاشفا اللثام عن وجوه التأثير فيه، ومواقع الحسن، وقد كسرته على المباحث الآتية:

– تصدير في تعريف الحديث النبوي.

–فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم.

– أسباب اختصاصه ﷺ بالفصاحة.

–لمحات من الخصائص البلاغية في الحديث النبوي.

–عناية البلاغيين بالحديث النبوي.

كتب في البلاغة النبوية كثير، وبقي في القوس منزع، وأرجو أن ينماز هذا البحث عن أسلافه بصحة جميع الأحاديث الشواهد التي ضمها بين دفتيه، فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وإذا كان الأخذ بالحديث الصحيح دون الضعيف مطلبا شرعيا، فإنه مهم أيضا في مثل هذه الدراسات؛ إذ تبنى عليه النتائج والأحكام، وكيف تبنى أحكام ونتائج على أحاديث ضعيفة!

أسأل الله أن ينفع بهذا البحث كاتبه وقارئه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *

تصدير في تعريف الحديث النبوي:

الحديث في اللغة يطلق على الخبر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ (النساء) وهو في الاصطلاح: ما أضيف إلى النبي من قول أو فعل أو تقرير.

فالقول: ما صدر عنه ﷺ من الألفاظ، كقوله: ((إنما الأعمال بالنيات))[1].

والفعل: هو ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم من أعمال، كالصلوات الخمس، وأداء مناسك الحج.

والتقرير: ما وقع من غيره عليه الصلاة والسلام باطلاعه، أو علمه، فلم ينكره.

فهذا كله يسمى حديثا ويسمى سنة، وقد أجمع المسلمون على حجية الحديث، واعتباره مصدرا تشريعيا كالقرآن، سواء بسواء، في إفادة الشرائع والأحكام في دين الإسلام[2]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (النجم)، وقال صلى الله عليه وسلم: ((ألا إني أوتيتُ الكتاب ومثله معه))[3].

ففي هذا الحديث إبانة عن كون السنة مما أوتيه النبي ﷺ، وأنه وحي من الله كالقرآن في التشريع، وهذا معنى المثلية مؤكَّدا بإنكار التفريق بينهما في المثل المضروب، وهذه المثلية "وإن كانت مثليةَ تبيين وتشريع، فإنها من دونها في الإعجاز البياني، إذ الإعجاز البياني قائم على التحدي، وهو خصيصة من خصائص البيان القرآني، غير أن بيان النبوة يعلو كل آفاق البيان البشري على الإطلاق، فهو وحي في مضمونه وهداه"[4].

وللسنة مع القرآن ثلاث حالات:

الحال الأولى: أنها تكون مقررة لما جاء في القرآن من الحكم فتفيد تأكيده، كتحريم عقوق الوالدين.

الحال الثانية: أنها تبين مبهمه، وتفصل مجمله، وتقيد مطلقه، وتخصص عمومه، وتفسر معانيه، كبيانها للصلاة وأنصباء الزكاة.

الحال الثالثة: أنها تأتي بحكم جديد ليس في القرآن، كتحريم الحُمر الأهلية.

---

(١) رواه البخاري (١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر ﷺ.

(٢) إرشاد الفحول (١٤٧).

(٣) رواه الإمام أحمد (١٧١٧٤) وأبو داود (٤٦٠٤) عن المقدام بن معدي كرب ﷺ، وإسناده صحيح.

(٤) فقه بيان النبوة (٥) وينظر: معالم السنن للخطابي (بهامش سنن أبي داود) (٥/ ١٠).

وثم نوع رابع مختلف فيه وهو أن السنة تنسخ القرآن، وليس هذا موضع بسط الخلاف فيه[1].

والذي نريد الكلام فيه هنا هو السنة القولية، وهي أقوال النبي ﷺ. فهذه يطلق عليها اسم الحديث، يقول الدكتور محمد عجاج الخطيب: "وإذا أطلق لفظ الحديث عند الأصوليين أريد به السنة القولية، لأن السنة عندهم أعم من الحديث"[2].

وإذا كان شراح الحديث يبينون مراد النبي ﷺ من كلامه، والفقهاءُ يحددون دلالة الحكم الشرعي من وجوب وندب وغير ذلك؛ فإن البلاغيين يبينون كيف جاء هذا البيان، وعلى أيّ صورة من أساليب التعبير خرج، و ما مظاهره وما سماته وما خصائصه.

فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم:

والذي لا ريب فيه أنه لم يعرف في تاريخ العربية الطويل ناطق بها أفصح من محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي صلى الله عليه وسلم، على كثرة بلغاء العربية، وخطبائها المصاقع، وشعرائها والمفلقين، وهي أمة القول والبيان، لاسيما في عهدها الأول، وقد أوتي عليه الصلاة والسلام من جوامع الكلم، وعلم ألسنة العرب ما لا يجاريه فيه أحد سبقه، أو جاء بعده.

لقد كان الرسول ﷺ "أفصح الخلق على الإطلاق، وأبلغ من أعجزت بلاغتُه الفصحاء على جهة العموم والاستغراق"[3]، وكان لا يقول إلا الحق، ولا ينطق إلا بالحكمة، وقد أعطي مع هذه العصمة أسمى مايمكن أن يصل إليه البشر من فصاحة وحسن بيان.

كان حديثه عليه الصلاة والسلام مضرب المثل، وموضع الدهشة، ومحل الإعجاب من كل من سمعه، وكان لكلامه هيبة، إذ كان محكم المبنى، غزير المعنى، حسن العبارة، سلس الأسلوب، بليغا يستميل النفوس، ويأخذ بمجامع القلوب، كان لتعبيره ﷺ نمط فريد، جمع بين ملاحة العبارة وتآلف كلماتها وتجاذب أصواتها وشمول معناها وعمقها ودقتها، وبالجملة فقد جاء حديثه ﷺ على النمط الباهر، والنظم البديع، الذي وصفه عبد القاهر الجرجاني بقوله: "ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعةً،

---

(١) ينظر: الرسالة للشافعي (٩١) أصول الفقه لأبي زهرة (١١٣).

(٢) أصول الحديث (٢٧).

(٣) فيض نشر الانشراح (٤٤٦/١) لابن الطيب.

ويأتيك منه ما يملأ العين ضربةً، حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل، وموضعه من الحذق، وتشهد له بفضل المنة، وطول الباع"[1].

كان عليه الصلاة والسلام لا يتكلف في القول ولا يتصنع، سليم المنطق، وليس في كلامه حشو ولا سقط ولا بذاء ولا هزل ولا عوج، وإذا تكلم خشعت القلوب من جلال العظة، وإذا خطب انقطعت الشبه لبلاغة الحجة، وامتلأت النفوس اقتناعا بالحقيقة، ورضا برأيه، وامتثالا لأمره ﷺ، حتى أضحت هذه البلاغة النبوية دليلا ساطعا على صدق رسالته[2]، وكان أصحابه رضي الله عنهم إذا جلسوا عنده كأن على رؤوسهم الطير[3]، إجلالا له، وترقبا لحديثه الشريف.

لقد كان ﷺ في كلامه يتميز بأمرين؛ الأول: أنه أفصح من نطق بالضاد[4]، والثاني: أنه وحي يوحى إليه من الله الذي أنزل عليه الكتاب، والفرق بين بلاغة الحديث وبلاغة القرآن لا يخفى على ذوي الفطر السليمة لاسيما الذين أتقنوا فنون البلاغة، وقلبوا أنظارهم في أساليبها المختلفة، وعرفوا كيف يضعون كل كلام بليغ في مرتبته، وهذا التفاوت الواضح بين القرآن والحديث من أصدق الشواهد على أن القرآن كتاب نزل من السماء، لا أنه من صنع النبي ﷺ[5].

لقد اصطفى الله نبيه ﷺ من خير العرب نسبا، وأكرمهم حسبا، وأرفعهم بيتا، وكانت قبيلتُه بنو هاشم إحدى قبائل قريش، وقريش أفصح القبائل العربية، وأعذبُها منطقا، وأصفاها لفظا، وهي واسطة قبائل العرب.

وعند النقاد وعلماء الحديث أن فخامة المعنى وإشراق الديباجة وفصاحة اللفظ من

---

(١) دلائل الإعجاز(٨٨).

(٢) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٢/٢٣٦)

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٢٦٨٧) وصحيح ابن حبان (٧٢٠٧)، وينظر: البلاغة النبوية وأثرها في النفوس، مقال في مجلة البحوث الإسلامية (٥/١٤٩).

(٤) كثير من الناس يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أنا أفصح من نطق بالضاد)) وهو وإن كان صحيح المعنى إلا أنه لا أصل له، كما قال ابن كثير في التفسير (١/٤٨)، وقال عنه السيوطي في مناهل الصفا (٥٢): "أورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد".

(٥) إعجاز القرآن للباقلاني (١٢٧،١٣٦) وينظر: محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لمحمد الخضر حسين (١٦٨)، ومراجعات في أصول الدرس البلاغي (٢٣٤).

أمارات صحة الحديث، لأن الركيك لا يكون من كلامه ﷺ، ولهم في وصف الحديث النبوي عبارات رنانة، حفظتها لنا كتب المصطلح وتراجم الرجال، فيقولون: هذا كلام صالح أن يكون من كلام النبوة[1]، وهذا الحديث خرج من مشكاة النبوة[2]، وعليه نور النبوة[3]، وعليه من النور والجلالة ما يشهد بصدقه[4]، وله حلاوة[5]، وله ضوء كضوء النهار[6]، وقالوا: "إن الخبر - أي الحديث - الفصيح يقدم على معارضه غير الفصيح، للعلم بأن غير الفصيح مروي بالمعنى، لأنه لو كان بلفظ النبي ﷺ لكان فصيحا"[7]، وقال الجَرِيري (٣٩٠هـ)[8] - بعد أن أورد انحرافا لغويا في حديث و اتهم به أحد رواته - قال: "لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب، وكلامه جار على أوضح الإعراب، وأعلى مراتب الصواب"[9]، وقال أبو حيان: "نعلم قطعا غيرَ شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح الناس، فلم يكن ليتكلم إلا بأفصح اللغات، وأحسن التراكيب، وأشهرها، وأجزلها"[10].

وإذا كان العرب في الجاهلية قد بلغوا شأوا بعيدا في الفصاحة، وصار إليهم المنتهى في المعرفة بأنواع البيان من الخطب والرسائل والسجع والمقفى والمنثور، وكانوا يسبحون في بحار البلاغة، وكان الكلام صناعتهم التي بها يتباهون ويتشدقون، كما شهد لهم القرآن بذلك في قوله سبحانه: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الزخرف)، وقوله تعالى: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ (مريم)، أي شديدي الخصومة بالباطل، جمعُ أَلَدٍّ، وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (الأحزاب)، فلا بد أن يكون الرسول

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٥١/١).

(٢) زاد المعاد (٦٧٧/٣).

(٣) المقترح في أجوبة بعض أسئلة المصطلح للوادعي (٩٧).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة (٣٧٩/٢).

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (٧٤٨/٢).

(٦) الكفاية (٤٣١)، فتح المغيث (١٢٨/٢).

(٧) نثر الورود شرح مراقي السعود (٦٠٩/٢).

(٨) هو أبو الفرج المعافى بن زكريا الجَرِيري، نسبة إلى ابن جرير الطبري لأنه كان ينتحل مذهبه في الفقه.

(٩) الجليس الصالح الكافي (٣٧٣/١)، وينظر: ضوابط الترجيح عند وقوع التعارض لدى الأصوليين (٣٢٦)، وما ذكر من مراجع في هامشه.

(١٠) التذييل والتكميل شرح التسهيل (مخطوط) (ج ٥ ورقة ١٦٩/ب)، وهو بنحوه في خزانة الأدب للبغدادي (٦/١).

الذي يبلغهم عن ربهم، ويهدم عقائدهم الباطلة، ويقتلع شجرة الشرك من قلوبهم؛ لا بد أن يكون بيانه أسمى من بيانهم، ومنطقُه أبلغ من منطقهم، ففصاحة اللسان لها أثر بالغ في الإقناع والإلزام بالحجة، والتوطئة لقبول الدعوة، ونفاذها إلى القلوب، وقد طلب موسى عليه السلام من الله أن يرسل معه أخاه هارون ليشد أزره، وليكون عضدا له بفصاحة لسانه، وحسن بيانه، فقال: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴿٣٤﴾ ﴾ (القصص)، وكان فرعون قد كذبه ورماه بعدم الإبانة، وكان يقول: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الزخرف).

ولقد أيد الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن وحجة البيان، وآتاه الله الحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (النساء)، وأمره الله ـ بعد أن أوحى إليه وألهمه ـ أن يخاطب قومه بالقول البليغ المؤثر، فقال سبحانه: ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (النساء) أي حسنَ الألفاظ حسنَ المعاني، مشتملا على الترغيب والترهيب، فإن الكلام إذا كان هكذا عظُم وقعه في القلب[1].

قال صاحب تفسير المنار: "في الآية شهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالقدرة على الكلام البليغ، وهي شهادة له بالحكمة ووضع الكلام في موضعه، وهذا بمعنى إيتاء الله تعالى نبيَّه داودَ عليه السلام الحكمةَ وفصلَ الخطاب، وما أوتي نبيٌّ فضيلة إلا وأوتي مثلَها خاتمُ النبيين صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، وشهادةُ الله له في هذا المقام أكبر شهادة"[2].

ومع هذه الشهادة العظيمة من الله عز وجل فقد تتابعت كلمات العلماء وأئمة البيان والبلغاء قديما وحديثا في الإشادة بكلامه ﷺ، وأنه كان أبلغ العرب، وأعلاهم بيانا، وأعذبهم أسلوبا، وأروعهم حكمة، وأصدقهم قولا، وأوضحهم عبارة، وأطبعهم على البلاغة والفصاحة والبيان.

ومن حكمة الله تعالى أن صرف نبيه ﷺ عن أن يكون شاعرا، لما في الشعر من

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٠/ ١٦٤).

(٢) تفسير المنار (٥/ ٢٣١).

المبالغة والخيال[1]، ولأن الشعراء في كل واد يهيمون، كما أخبر الله عنهم، ولذا قيل: أعذب الشعر أكذبه، ونبينا محمد ﷺ لا يقول إلا حقا، كما أخبر عن نفسه[2]، والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ (يس:٦٩)، ويرى القرطبي أنه ﷺ منع عليه الشعر "لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه، فيظن أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر"[3]، كما لم يكن عليه الصلاة والسلام من رواة الشعر، وإن كان يستمع إلى الشعراء، ويتمثل بالشعر[4]. وأما ماجرى على لسانه ﷺ من الكلام الموزون فهذا لا يعد شعرا، لعدم القصد إليه، كقوله عليه الصلاة والسلام: ((أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب))[5].

قال يونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ): "ما جاءنا عن أحد من روائع الكلم ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"[6].

وقال الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ـ وهو من أئمة البيان، وأحد واضعي أصول البلاغة ـ: "هو ـ أي كلام نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ـ الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد[7]: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (ص) .... استعمل ﷺ المبسوط في

---

(١) فيض القدير (٣٨/٣).

(٢) رواه الأمام أحمد (٨٤٨١) و (٨٧٢٣) والترمذي في جامعه (١٩٩٠) عن أبي هريرة ﷺ، وقال الترمذي: "حسن صحيح"، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٦٢١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤٨٥/١٧).

(٤) روى الإمام أحمد في مسنده (٢٥٢٣١) والترمذي في جامعه (٢٨٤٨) وصححه عن شريح قال: قيل لعائشة رضي الله عنها: هل كان النبي صلى الله عليه و سلم يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة ويقول: ((ويأتيك بالأخبار من لم تزود)) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٥٧)، قلت: وبهذا يتبين عدم صحة مايدعيه بعض العلماء وكثير من الأدباء من أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد هذا الشطر فقدم فيه وأخر، وقال الحافظ في فتح الباري (٥٥٧/١٠): "وقد اختلف في جواز تمثل النبي صلى الله عليه وسلم بشيء من الشعر وإنشاده حاكيا عن غيره، فالصحيح جوازه".

(٥) رواه البخاري (٢٧٠٩) ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب ﷺ.

(٦) البيان والتبيين (١٨/٢).

(٧) الأولى أن يقول: أيها النبي، فإن الله نهى عن ندائه صلى الله عليه وسلم باسمه، ولم يناده سبحانه في القرآن إلا بوصف النبوة أو الرسالة، خصيصة له عليه الصلاة والسلام من دون سائر الأنبياء، فالأولى التأدب بأدب الله تعالى.

موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجَر الغريب الوحشي، ورغِب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقَى الله المحبة عليه وغشَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلَّت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبُذُّ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلَج[1] إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يَهمِز ولا يَلمِز، ولا يُبطئ ولا يعجل، ولا يُسهِب ولا يَحصَر، ثم لم يسمع الناس بكلام قطُّ أعمَّ نفعا، ولا أصدقَ لفظا، ولا أعدلَ وزنا، ولا أجملَ مذهبا، ولا أكرمَ مطلبا، ولا أحسنَ موقعا، ولا أسهلَ مخرجا، ولا أفصحَ معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ.

وإنما أطلت في نقل كلام أبي عثمان لما فيه من الإجادة والإفادة، ثم هو أول نص في هذا الباب تضمن عرضا موفورا لخصائص الحديث النبوي، من رجل صناعته تفقد الكلام، وتحسس مواضع الحسن فيه، وفي كلام الجاحظ إشارات للأصول البلاغية التي يخرج عليها كلام النبي ﷺ، من الفصاحة، ومراعاة الأحوال، والإيجاز، وغيرها، وكأنما أحس الجاحظ نفسه بوجود من سيأخذ عليه هذا الإطناب في الثناء، فقال: "ولعل بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلام يظن أنا تكلفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلغه قدْرُه، كلا! والذي حرَّم التزيُّد على العلماء، وقبَّح التكلُّف عند الحكماء، وبَهْرَج الكذَّابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه"[2].

وقال الزمخشري (ت٥٣٨هـ): "ثم إن هذا البيان العربي كأن الله عزَّتْ قدرته مَخَضَه، وألقى زُبْدته على لسان محمد عليه أفضلُ صلاة وأوفرُ سلام؛ فما من خطيب يقاومه إلا نكَص متفكك الرِّجل[3]، وما من مِصْقع يناهزه إلا رجع فارغ السَّجْل"[4].

---

(١) الفَلَج ـ بالفتح وبالتحريك ـ: الفوز والظفر.

(٢) السابق.

(٣) متفكك الرجل: كناية عن العجز، وفي نسخة: الرَّحْل ـ بالحاء المهملة ـ والمعنى هو.

(٤) الفائق (١١/١).

وقال أيضا: "النبي العربي المستلُّ من سلالة عدنان، المفضَّلُ باللسان، الذي استخزنه الله الفصاحة والبيان"[1].

وقال القاضي عياض (ت٥٤٤هـ): "وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول؛ فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسةَ طبع، وبراعةَ منزع، وإيجازَ مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعُلِّم ألسنةَ العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله، ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه"[2].

وقول عياض: "وعُلِّم ألسنةَ العرب" إلخ، يريد لهجات العرب ولغات القبائل المختلفة، فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام بمقتضى عموم رسالته يخاطب عامة الناس من أحياء العرب المتفرقة في هذه الجزيرة ويكاتبهم إبلاغا لدين الله، ويستقبل الوافدين منهم للإسلام، ويعرف ألسنتهم[3]، وسمي عام تسع من الهجرة عام الوفود لكثرتهم وتتابعهم، فلا جرم أن يتخلل هاته المحاورات أمشاج من اللهجات العربية المختلفة، وفسر بعض العلماء ﷺ قوله: ((أعطيت جوامع الكلم))[4] أنه كان يكلم كل قبيلة بلسانها[5].

ومن العجيب أن اللغويين ـ فيما أعلم ـ لم يصنفوا في لغات القبائل الواردة في الحديث كما فعلوا في القرآن، حيث وضعوا في ذلك مصنفات، ومنها كتاب لغات القبائل الواردة في القرآن لأبي عبيد، وهو مطبوع.

وقال مجد الدين ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ):"كان رسول اللّه ﷺ أفصح العرب لسانا، وأوضحهم بيانا، وأعذبهم نُطقا، وأسَدَّهم لفظا، وأبينهم لهجة، وأقومَهم حُجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طُرق الصواب، تأييدا إلهِيا، ولطفا سماويا،

---

(١) أساس البلاغة (١/ج).

(٢) الشفا (١/٩٥)، وينظر: سبل الهدى والرشاد (٢/٩٤).

(٣) قال الإمام الشافعي في الرسالة (٤٢): "ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسانٌ غيرُ نبيٍّ".

(٤) سيأتي تخريجه.

(٥) الفتوحات الوهبية (٢٨).

وعناية ربانية، ورعاية رُوحانية"[1].

وقال يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ): "فإن كلامه صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان نازلا عن فصاحة القرآن وبلاغته ـ في الطبقة العليا، بحيث لا يدانيه كلام، ولا يقاربه وإن انتظم أي انتظام"[2].

وقال القسطلاني (ت ٩٢٣هـ): "فصاحة لسانه صلى الله عليه وسلم غاية لا يدرك مداها، ومنزلة لا يدانى منتهاها، وكيف لا يكون ذلك وقد جعل الله تعالى لسانه سيفا من سيوفه يبين عنه مراده ويدعو إليه عباده! فهو ينطق بحكمه عن أمره، ويبين عن مراده بحقيقة ذكره، أفصح خلق الله إذا لفظ، وأنصحهم إذا وعظ، لا يقول هُجرا ولا ينطق هذرا، كلامه كله يثمر علما، ويُمتثل شرعا وحكما، لا يتفوه بشر بكلام أحكم منه في مقالته، ولا أجزل منه في عذوبته، وخليق بمن عبَّر عن مراد الله بلسانه وأقام الحجة على عباده ببيانه وبيَّن مواضع فروضه وأوامره ونواهيه وزواجره أن يكون أحكمّ الخلق تبيانا، وأفصحهم لسانا، وأوضحهم بيانا"[3].

هذه بعض كلمات العلماء سقتها لتقفنا على شيء من خصائص البلاغة النبوية، وأنها المثل الأعلى للبلاغة العربية، بعد كتاب الله جل وعلا، ولم أوردها على أنها أدلة وبراهين لوجود البلاغة في الحديث، فكل صاحب ذوق وفطرة صحيحة من أبناء هذا اللسان يدرك ذلك، وكيف يُطلب الدليل في رابعة النهار على وجود الشمس! قال الصالحي (ت ٩٤٢هـ) بعد أن ساق كلام القسطلاني السابق: "وبالجملة فلا يحتاج العلم بفصاحته ﷺ إلى شاهد، ولا ينكرها موافق ولا معاند"[4]، ونقل أبوحيان في شرح التسهيل عن ابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ) أن قوما من الزنادقة، وهم يتطلبون على زعمهم في القرآن لحنا، فقال لهم: "ويلكم! هبكم شككتم في كونه نبيا، أتشكون في كونه عربيا؟!"[5]

---

(١) النهاية في غريب الحديث (١/٤).

(٢) الطراز (١/١٦٠).

(٣) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٢/٢٣٦).

(٤) سبل الهدى والرشاد (٢/٩٤).

(٥) التذييل والتكميل شرح التسهيل (مخطوط) (ج ٥ ورقة ١٦٩/ب).

أسباب اختصاصه ﷺ بالفصاحة:

علمت مما مضى ما كان عليه الصلاة والسلام من كمال الفصاحة، وجمال المنطق؛ ولا شك أن ثمة أسبابا تضافرت في صناعة هذا البيان الخالد ليكون آية بينة تقومُ به الحجة، وتنقطعُ به معاذير الخلق؛ فمن تلك الأسباب:

١. التوفيق والإلهام: فإن الله تعالى ـ بكمال علمه وحكمته ـ اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم من خلقه وخصه بأفضل شريعة، وأنزل عليه أفضل كتاب، وفتح عليه من العلم، وأيده بالوحي، ومنحه الحكمة، وأجراها على لسانه، وفضله بجوامع الكلم، قال ﷺ: ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم))[١]، فالحديث عن بلاغته صلى الله عليه وسلم حديث عن الوحي الرباني والمدد الإلهي، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (النساء)، وقال سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأحزاب)، قال المفسرون: الكتاب القرآن، والحكمة السنة[٢]، قال حسان بن عطية التابعي الجليل: "كان جبريل ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن"[٣]، وقال ابن حزم رحمه الله: "الوحي ينقسم من الله عز و جل إلى رسوله صلى الله عليه و سلم على قسمين؛ أحدهما وحي متلو مؤلف تأليفا معجز النظام، وهو القرآن. والثاني وحي مروي منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو لكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ، وهو المبين عن الله عز و جل مراده منا" ثم ذكر رحمه الله أن "القرآن والخبر الصحيح بعضها مضاف إلى بعض، وهما شيء واحد في أنهما من عند الله تعالى، وحكمها حكم واحد في باب وجوب الطاعة لهما"[٤].

فظهر بذلك أن السنة كالقرآن في كونها وحيا من الله، لكن القرآن ألفاظه ومعانيه

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦) عن واثلة بن الأسقع ﷺ.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٧٧٤).

(٣) رواه أبوداود في المراسيل (٣٦١) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٣/١) والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٦٦/١) وإسناده صحيح، وذكر ابن حجر في فتح الباري (٢٩١/١٣) أن البيهقي أخرجه بسند صحيح. قلت: ولم يزل العلماء يصفون السنة بأنها وحي، وأنها منزلة من الله، وقال الشافعي: "السنة وحي يتلى" طرح التثريب (١٥/١) وينظر: الكفاية للخطيب البغدادي (٢).

(٤) الإحكام لابن حزم (٧٣/١).

من الله، أما السنة فمعانيها من الله وألفاظها من الرسول صلى الله عليه وسلم.

وظاهر أن من الحكمة في أن الله اختص نبيه بكمال الفصاحة وببليغ القول حتى يبلغ عن ربه البلاغ المبين الذي تقوم به الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ (النحل)، ولأن السنة مكملة للقرآن ومفسرة له، فهي منه بموضع الشرح من المتن، فوجب أن تكون بلاغة الحديث من السمو بحيث تكون وافية في تفصيل مجملات القرآن وتبيين مبهماته.

وكان شيخنا العلامة عبد الرحمن البراك[1] قد سئل عن كلام النبي ﷺ التشريعي وأنه وحي من الله تعالى، فهل تكون صياغته عليه الصلاة والسلام للحديث على وفق مراد الله، من حيث تقديم الكلام وتأخيره، وما أشبه ذلك؟

فأجاب وفقه الله بقوله: "الحمد لله، لاريب أن ما كان يتكلم به الرسول ﷺ مبلغا عن الله شرعه يحصل به بيان مراد الله أتم بيان، لأنه أعلم الناس بمراد ربه، وأقدر الناس على البيان لما يريد بيانه، وأنصح الناس للعباد، ويكفي هذا القدر عن التقييد بحيثيات الكلام، كقول السائل: "من حيث التقديم والتأخير"، ومن المعلوم أن ما كان ضروريا للبيان فلابد أن يراعيه المكلَّف بالبلاغ، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (النحل)، والله أعلم"[2].

قال البيهقي: "فصل في بيان النبي صلى الله عليه و سلم وفصاحته، قال الحَليمي رحمه الله: و هذا أشهر و أظهر من أن يُحتاج إلى وصفه، ولو لم يكن على ذلك دلالةٌ سوى أن الله تعالى نَصَبه منصب البيان لكتابه فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤) لكان كافيا، فإنه لو لم يكن آتاه البيان لكتابه، ولم يرقِّه فيه إلى أعلى الدرجات لما رضيه لتبيين كتابه، والكشف عن معاني خطابه"[3].

٢. ومن أسباب فصاحته صلى الله عليه وسلم كونه قرشيا، وقريش أفصح العرب بإجماع العلماء قاطبة، روى ابن فارس بسنده عن إسماعيل بن أبي عبيد الله، قال:

---

(١) أحد كبار العلماء المعاصرين، كان أستاذا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكان من أكابر تلاميذ العلامة الشيخ عبد العزيز ابن باز، وقد رشحه لمنصب الإفتاء فاستعفى.

(٢) مجموع الفتاوى (مخطوط) (٣٤/٣).

(٣) الجامع لشعب الإيمان (٣١٧/٣)، وقد تصرف البيهقي قليلا في نص الحليمي، ينظر: المنهاج (٧٧/٢).

"أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواةُ لأشعارهم، والعلماءُ بلغاتهم وأيامهم ومحالِّهم أن قريشا أفصحُ العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن اللّه جل ثناؤه اختارَهم من جميع العرب، واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمدا، فجعل قريشا قُطَّان حَرَمه، وجيران بيته الحرام، وولاته، فكانت وفود العرب من حجَّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم.... وكانت قريش ـ مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقَّة ألسنتها ـ إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغاتهم، وأصفى كلامهم، فاجتمعَ ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طُبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصحَ العرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم[1]، ولا عَجْرفية قيس[2]، ولا كَشْكَشَةَ أسد[3]، ولا كَسْكَسة ربيعة[4]، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس، مثل: تِعلمون و نِعلم"[5].

وقال أبو نصر الفارابي: "كانت قريش أجود العرب انتقاداً[6] للأفصح من الألفاظ، وأسهلَها على اللسان عند النُّطق، وأحسنها مسموعا، وأبينَها إبانّةً عمّا في النفس"[7].

٣. ومن أسباب فصاحته ﷺ استرضاعُه ونشأته في بني سعد بن بكر، حيث أقام بين ظهرانَيهم أربعَ سنين[8]، وكانت عادةُ أشراف العرب استرضاعَ أبنائهم في البادية ليكون ذلك أنجبَ للولد، وأصح للبدن، وأصفى للذهن، وأبعد عن الوخَم والكسل، "وأجدر أن لا يفارق الهيئة المَعَدِّيَّة"[9]، ثم ما يجده الصبي بعد ذلك إثر مثافنته للأعراب؛ من استقامة لسانه بالفصيح من الكلام، والسلامة من اللحن، والبراءة من الهُجنة، قال صلى

---

(١) العنعنة: جعل الهمزة المبدوءِ بها عينا، فيقولون في إنك: عنك.

(٢) العجرفية: التقعر في الكلام.

(٣) الكَشْكَشة: إبدال كاف الخطاب في المؤنث شينا، فيقولون: عليش في عليك، ومنهم من يضيف شينا بعد الكاف.

(٤) الكَسْكَسة: جعل سين بعد كاف الخطاب في المذكر، أو جعل سين مكانها. ينظر: فقه اللغة لابن فارس (٣٣) المزهر (٢١١/١) تاج العروس(٨/١).

(٥) فقه اللغة (٣٣) وينظر: مجالس ثعلب (٨١/١) المزهر (٢١١/١).

(٦) كذا، ولعلها: انتقاءً.

(٧) المزهر (٢١١/١) وعزاه إلى كتابه الحروف، ولم أجده فيه بتحقيق محسن مهدي.

(٨) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (١١٩/١)

(٩) الروض الأنف (١٦٦/٢)، والمعدية نسبة إلى قبيلة عاد، وهم قوم أشداء أجلاد.

الله عليه وسلم: ((واستُرضعت في بني سعد))[1]، وبنو سعد بطن من عُليا هوازن، من عدنان، قال أبو عَمْرو بنُ العلاء: "أفصح العرب عُليا هوازن وسُفلى تميم"[2]، ثم ترعرع ﷺ بعد ذلك في بني هاشم وإخوانهم من القرشيين، وعند أخواله من بني زُهرة، ثم تزوج في بني أسد، ثم هاجر إلى الأوس والخزرج، وكل هؤلاء سادة فصحاء، وهم أخلص القبائل لسانا، وأعذبها لهجة، والوسيلة الطبعية لاكتساب اللغة إنما هي المنطق والمحاكاة[3].

٤. ومن أسباب فصاحته عليه الصلاة والسلام إنزال القرآن العظيم عليه، وهو البالغ مرتبة الإعجاز، والكتاب الذي أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وخرقت بلاغته عادة العرب، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فكان لهذا الكتاب أثر في سمو فصاحته ﷺ حيث تأدب بآدابه وتأثر بأساليبه، وإذا كان المسلم أيًّا كان، يقرأ القرآن ويحفظ شيئا منه ويستعين بهذه القليل، فيضيء كلامه، وتسمو أساليبه على أساليب الناس، ويعلو بيانه على بيان الآخرين، فكيف إذا كان ذلك مع الموحَى إليه به؟! وإن من أدل الدلائل على ذلك اقتباساته ﷺ من القرآن، كقوله عليه الصلاة والسلام يوم خيبر: ((الله أكبر! خربت خيبر! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين))[4]. فهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (الصافات)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض))[5]، فهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأنفال)، وأما استشهاده عليه الصلاة والسلام بالقرآن فكثير؛ ومنه ما جاء في حديث علي ﷺ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ فقال: ((ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار)) فقلنا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟

---

(١) رواه ابن إسحاق ـ كما في سيرة ابن هشام (٢١٩/١) ـ قال ابن كثير في البداية والنهاية (٢٩٩/٢): "إسناده جيد وقوي".

(٢) فقه اللغة (٤١) المزهر (٢١١/١).

(٣) إعجاز القرآن للرافعي (٣٧٠) وحي الرسالة (٨١/٣).

(٤) رواه مسلم (٨٦٢).

(٥) رواه الترمذي (١٠٨٤) وابن ماجه (١٩٦٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٢٢) وصحيح سنن الترمذي (٨٦٥).

فقال: ((اعملوا فكل ميسر))، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ (الليل)[1].

إن كل هذه الأسباب قد اجتمعت لتصوغ بعد ذلك أعذب بيان إنساني، وأصدق حكمة، في أجل لغة وأسماها، فانتظم في لسانه عليه الصلاة والسلام "الطبع الصافي والتأييد الإلهي"[2]، قال ابن حزم رحمه الله: "تالله لقد كان محمدُ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم قبل أن يكرمه الله تعالى بالنبوة، وأيامَ كونه فتى بمكة، بلا شكٍ عند كل ذي مُسْكةٍ من عقل = أعلمَ بلغة قومه وأفصحَ فيها، وأولى بأن يكون ما نطق به من ذلك حجةً من كل خِندفي وقيسي وربيعي وإيادي وتميمي وقُضاعي وحِميري[3]، فكيف بعد أن اختصه الله تعالى للنِّذارة[4]، واجتباه للوساطة بينه وبين خلقه، وأجرى على لسانه كلامَه، وضَمِن حفظه، وحفظ ما يأتي به"[5].

لمحات من الخصائص البلاغية في الحديث النبوي:

ثمة خصائص بلاغية ومعالم بيانية كثيرة يجدها المطالع المتأمل في حديثه صلى الله عليه وسلم، وقد يسر الله تدوين شيء منها بعد النظر في الحديث الشريف نفسه، وبعد مراجعة كلام أهل العلم والكاتبين في بلاغة الحديث النبوي، ويمكن تصنيف هذه الخصائص إلى نوعين؛ أحدهما: خصائص تتعلق بلغة الحديث نفسه وبنائه التركيبي، أي بنظمه، والثاني: خصائص لا تتعلق بلغة الحديث وبنائه، بل هي من خارج الحديث ولكنها من متممات الفصاحة؛ وإلى تفصيل ذلك:

أولا: الخصائص المتعلقة بلغة الحديث وبنائه:

١. مراعاة أحوال المخاطبين؛ فقد كان النبي ﷺ يخاطب كل أحد بما يناسب حاله وإدراكه وواقعه، ويراعي المقامات والمواقف، وقد يزيد في جواب السائل بأكثر مما سأل، وقد يكرر كلامه ثلاثا، ويؤكده بالمؤكدات من القسم وغيره، تبعا لأحوال

(١) رواه البخاري (٤٦٦٤) ومسلم (٢٦٤٦) (٧)، وينظر: الاقتباس أنواعه وأحكامه (٦٧).

(٢) ضوء الصباح (مخطوط) (١٣).

(٣) يريد: من كل عربي.

(٤) في القاموس (نذر): "النذير: الإنذار كالنِّذارة بالكسر، وهذه عن الإمام الشافعي". قلت: وينظر: الرسالة (١٤).

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١٩٣).

المخاطبين، والبلاغيون يقولون: إن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، ومن شواهد ذلك ماروا‌ه أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال لمعاذ ﷺ وكان رديفه على الرحل: ((يا معاذ بن جبل))، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: ((يا معاذ)) قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثلاثا، قال: ((ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار))، قال معاذ: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: ((إذاً يتكلوا))[1]، فكرر النبي ﷺ نداءه لمعاذ ليُقبل إليه بكامل سمعه لتلقي هذا الخبر المهم، والبشارة العظيمة، وهو أن من حقق التوحيد حرمه الله على النار، وأدخله الجنة، مع قيامه بالعمل وما أوجبه الله من الفرائض، وقد خص النبي ﷺ معاذا بهذا الخبر لفضله وعلمه، ولأن مثله لايمكن أن يدع العمل، وقد بوَّب البخاري في صحيحه على الحديث فقال: "باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا"، قال شارحه العيني: "مطابقة الحديث للترجمة من حيث المعنى، وهو أنه خص معاذا بهذه البشارة العظيمة دون قوم آخرين مخافة أن يقصروا في العمل متكلين على هذه البشارة"[2]، ولكن معاذا ﷺ أخبر بها عند موته تأثما، كما جاء في الخبر نفسه، أي خروجا من الإثم بكتم العلم.

وقد أخذ الصحابة ﷺ بهذا المنهج النبوي في خطاب الناس على قدر فهومهم وأحلامهم، فهذا ابن مسعود ﷺ يقول: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"[3]، وقال علي ﷺ:"حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ﷺ!"[4].

ومن مراعاته ﷺ للمخاطبين تنوع حديثه ﷺ في فضائل الأعمال؛ فمرة جعل أفضلها الصلاة وبر الوالدين[5]، ومرة جعل أفضلها الإيمان بالله ورسوله[6].

---

(١) رواه البخاري (١٢٨) ومسلم (٣٢).

(٢) عمدة القاري (١٧٦/٢).

(٣) رواه مسلم في المقدمة (١١/١).

(٤) رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم (١٢٧).

(٥) رواه البخاري (٥٠٤) ومسلم (٨٥) عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) رواه البخاري (١٧) ومسلم (٨٣) عن أبي هريرة ﷺ.

وقال مرة: ((ذكر الله))[1]، في أحاديث أخرى، ويذكر الشُّراح أن هذا "الاختلاف بالنظر إلى اختلاف أحوال المخاطبين فمنهم من يكون الأفضل له الاشتغال بعمل ومنهم من يكون الأفضل له الاشتغال بآخر، والله أعلم"[2].

ومن هذا أيضا وصيَّة النبي ﷺ لكل رجل بما يناسب حاله، فقد أتاه رجل فقال: أوصني يارسول الله، قال: ((لا تغضب))[3]، وينقل ابن حجر عن بعض العلماء قوله: "لعل السائل كان غضوبا" ثم يقول: "وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر كل أحد بما هو أولى به، فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب"[4]، وبهذا يندفع ما يورد من إشكال، وهو لِمَ لمْ يوصه النبي صلى الله عليه وسلم بما هو أعلى من ذلك، كتقوى الله، أو الإيمان بالله.

ومن شواهد ذلك أيضا في السنة أن رجلا جاء إلى النبيﷺ فقال: أوصني، فقال له عليه الصلاة والسلام: ((لاتَسُبَّنَّ شيئا)) أو قال: ((أحدا)) . شك الحكم. قال: "فما سببت بعيرا ولا شاة منذ أوصاني رسول الله ﷺ"[5]، وقالت امرأة: "أوصني يارسول الله"، قال: ((إياكِ وما يسوءُ الأذن))[6]، وجاءه رجل فقال: يا رسول الله أريد أن أسافر فأوصني، قال عليه الصلاة والسلام: ((عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف)) فلما أن ولَّى الرجل قال: ((اللهم ازْوِ له الأرض، وهوِّن عليه السفر))[7].

ومما يدخل في مراعاة النبي ﷺ للأحوال ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله بقوله: "كان ﷺ يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون في حق من ليس كذلك، وأن

---

(١) رواه أحمد (٢١٧٠٢ و٢١٧٠٤) والترمذي (٣٣٧٧) عن أبي الدرداء ﷺ، وإسناده صحيح.

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢١٨/٢) شرح الموطأ للزرقاني (٢٨٦/٢) طرح التثريب (٢١٦/٥).

(٣) رواه البخاري (٥٧٦٥).

(٤) فتح الباري (٥٣٦/١٠) وينظر: شرح الأربعين النووية لابن عثيمين (١٨٣).

(٥) رواه الإمام أحمد (١٦٦١٦) عن أبي تميمة ﷺ، وقال محققه: "حديث صحيح".

(٦) رواه الإمام أحمد (١٦٧٠١) وإسناده حسن، وأعله محقق المسند بجهالة حال العاص بن عمرو، والصحيح قبول روايته إذ لم ينُقل فيه جرح، ولذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٥/٨): "فيه العاص بن عمرو، وهو مستور، وبقية رجاله رجال الصحيح". قال السندي في حاشية المسند (٤٦٥/٩): "قوله: ((وما يسوء الأذن)) أي الكلام القبيح الذي تتأذى به الأذن". وينظر: رعاية حال المخاطب في الصحيحين (٣٧).

(٧) رواه الإمام أحمد (٨٣١٠) والترمذي (٣٤٤٥) وحسنه، والحاكم في المستدرك (٤٤٥/١) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٣٠).

يستعمل اللفظ المهين المكروه في حق من ليس من أهله، فمنع أن يقال للمنافق: سيد، ومنع تسمية أبي جهل بأبي الحكم، وأن يقال للسلطان: ملك الملوك، أو خليفة الله، وأرشد من مسه شيء من الشيطان أن يقول: بسم الله، ولا يلعنه أو يسبه، ولا يقول: تعس الشيطان، ونحو ذلك"[1].

٢. سهولة المعاني، ووضوح الألفاظ وحسنها في كلامه ﷺ، فجمهور حديثه عليه الصلاة والسلام واضح العبارة، حلو الديباجة، مشرق المعنى، مع قوة البناء، وليس معنى هذه السهولة أن لغة الحديث هي نفسها لغة الكلام العادي، والسوقي المبتذل، بل هي اللغة المحكمة، التي توصف بقوة البناء، وجزالة المفردة، وحسن الإفهام، وكمال التأثير والمهابة، فأسلوبه ﷺ هو البلاغة القريبة البعيدة، والسهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريبا ضوءها، بعيدا مكانها، وهذا ـ عند البلغاء ـ أجود الكلام، أعني السهل الممتنع، وهو الذي يظن كل أحد أنه يقول مثله، فإذا رامه تعذر عليه[2]، وبالجملة فقد جمع كلامه ﷺ بين السهوله والعذوبة والجزالة والرصانة، ولا تجد في حديثه عليه الصلاة والسلام لفظا حوشيا غريبا، ولا كلمة خشنة متنافرة الحروف، ولا كزَّة نابية، ولا سائر ما ينافي الفصاحة، وقد عقد ابن القيم فصلا قال فيه: "فصل في هديه صلى الله عليه وسلم في حفظ المنطق واختيار الألفاظ" ثم قال: "كان عليه الصلاة والسلام يتخير في خطابه، ويختار لأمته أحسن الألفاظ، وأجملها، وألطفها، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش"[3].

كما لا تجد في أحاديثه ﷺ شيئا من ضعف التأليف بجميع أنواعه المعروفة عند البلاغيين، ولم يكن من همه عليه الصلاة والسلام تعقيد الكلم وليُّ الحديث، واجتلابُ الضمائر الموهمة، ولا الإغراب، مع إحاطته بجميع اللغة، كما يقول الإمام الشافعي[4]، بل جاء كلامه سهلا في لغة هادئة، متباعدا عن التكلف، فكان كما قال الله له: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (ص).

---

(١) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/٣٥٢).

(٢) كتاب الصناعتين (٦٧).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/٣٥٢).

(٤) الرسالة (٤٢) وينظر: فقه اللغة لابن فارس (٢٦) ومعجم مقاييس اللغة (٦/١٦٠).

كان يتكلم ﷺ فيخرج كلامه رقراقا عذبا، "يأخذ بمجامع القلوب، ويسبي الأرواح"[1]، وقد وصفته أم معبد رضي الله عنها بقولها: "حلو المنطق، فصل لانزْر ولا هَذَر، كأن منطقه خرَزات نظم يتحدَّرن"[2]، وأشار إلى ذلك الجاحظ بقوله المتقدم: "ولا يُبطئ ولا يعجل، ولا يُسهِب ولا يَحصَر"، ومن آثار هذه السهولة وحسن الانتظام في كلامه عليه الصلاة والسلام ظهور معانيه، ووضوح مقاصده للجميع، حتى كأن الناس يتساوون في فهمها، وقد قيل: "إن الذي تجود به الطبيعة، وتعطيه النفس سهوا رَهْوا[3] . مع قلة لفظه وعدد هجائه ـ أحمدُ أمرا، وأحسن موقعا من القلوب، وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج"[4]، وقال المتنبي:

أَبْلَغُ ما يُطلَبُ النَّجاحُ بِهِ الطَّبْعُ وعِنْدَ التَّعَمُّقُ الزَّلَلُ[5]

وقد قيل: إن المعاني الغامضة التي يسلكها نفر من الكتاب لا تدل على العمق والقوة قدرَ ما تدل على العجز والعمى، لأن المعنى إذا كان واضحا في نفس الكاتب بارز الجوانب في تصوره انقاد له اللفظ انقيادا، والعكس بالعكس[6].

وكان ﷺ إلى ذلك يكره التشدق والتفيهق والإكثار من الكلام، بل كان هو عليه الصلاة والسلام "طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه"[7]، وكان يقول: "إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وأبغضكم إليَّ مساوئكم أخلاقا، الثرثارون المتفيهقون

---

(١) زاد المعاد (١٨٢).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٩) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٠٩): "قصة أم معبد مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا".

(٣) في أساس البلاغة (١/ ٣٨٧): "أتاه بالشيء رهوا سهوا أي عفوا سهلا لا احتباس فيه".

(٤) البيان والتبيين (٤/ ٢٨)

(٥) ديوانه (٣/ ٢٢٠) قال في شرحه التبيان: "المعنى، يقول: إذا فعل الإنسان الشيء بعادته وجد النجاح فيه، وإذا بالغ وتعمق وتكلف أخطأ وزل، وهذا من أحسن الأمثال، وهو من قول عبد القدوس:

فَدَعِ التعمُّقَ في الأمور فإنما قَرُبَ الهلاكُ بكل من يتعمَّقُ"

(٦) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري (٢١٢).

(٧) ينظر: زاد المعاد (١/ ١٨٢).

المتشدقون"[1]، الثرثار هو الكثير الكلام تكلفا، والمتشدق هو المتكلم بملء شدقه تفاصحا وتعظيما لكلامه، والمتفيهق الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه، إظهارا لفصاحته وفضله، واستعلاء على غيره[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة"[3]. قال الطيبي: "قوله: ((يتخلل بلسانه)) هو الذي يتشدق في الكلام، ويفخم به لسانه، ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها، شبَّه إدارة لسانه حول الأسنان والفم حال التكلم تفاصحا بما تفعل البقرة بلسانها"[4]، كما ذمَّ صلى الله عليه وسلم السجع المتكلف، وأنكر على من تكلم به فقال: "أسجع كسجع الأعراب"، هذا لفظ مسلم[5]، وفي رواية الشيخين: "إنما هذا من إخوان الكهان"[6]. زاد الراوي: من أجل سجعه الذي سجع[7].

٣. أن كلامه صلى الله عليه وسلم يخرج وفق فطرته المستقيمة وعلى البديهة، فكان يرمي بالكلام على السليقة من غير تكلفٍ ولا مراجعة ولا احتشادٍ ولا تزويق ولا تصنع، كما يفعل البلغاء، ولا يبالغ في الخيال والمجاز، على أنه تحدث في مسائل الغيب، والجنة والنار، وأعذر وأنذر وبشر، وقص من أخبار السابقين من الأنبياء والأمم الغابرة وأخبر عن مصارع الظالمين، وبسط القول في الملاحم وفتن آخر الزمان وأشراط الساعة، وغير

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٥١٥) والإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٩٤) وابن حبان في صحيحه (٤٨٢) عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ وقال الهيثمي: "رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح" مجمع الزوائد (٨/ ٢١)، وكذا قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٤١٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٦٢).

(٢) الترغيب والترهيب (٣/ ٤١٢) الكاشف عن حقائق السنن (٩/ ٩١).

(٣) رواه الإمام أحمد (٦٥٤٣) و(٦٧٥٨) وأبو داود (٥٠٠٥) والترمذي (٢٨٥٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما،وإسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤١٨٥) وصحيح الترمذي (٢٢٨٩).

(٤) الكاشف عن حقائق السنن (٩/ ٩٢).

(٥) رواه مسلم (٤٤٧٨) عن المغيرة بن شعبة ﷺ .

(٦) البخاري (٥٤٢٦) مسلم (١٦٨١) .

(٧) قلت: ولأن هذا المتكلم بالسجع أراد رد حكم النبي ﷺ في دية المرأة وجنينها بقوله: "كيف أغْرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يُطَلّ" صحيح مسلم (١٦٨١)، فاجتمع في سجعه عيبان، التكلف ودفع الحكم الشرعي، وإلا فالسجع في أصله جائز، ولو كرهه النبي ﷺ لقال: أسجعا ثم سكت.

هذا، ومع ذلك جاء حديثه وهو الغاية في الصدق والواقعية، وحسن الديباجة، وسهولة المأخذ، بل ليس فوقه مقدارٌ إنساني من البلاغة والتسديد، قال الرافعي في كلامه على حديث الثلاثة والغار: "وأنا فلست أدري! أهذا النبي ﷺ يتكلم في الإنسانية وحقوقها بكلام بين صريح لا فلسفة فيه، يجعل ما بين الإنسان والإنسان من النية هو ما بين الإنسان وربه من الدين، أم هي الإنسانية تنطق على لسانه بهذا البيان العالي"[1]، ثم قال: "ومعلوم أنه ﷺ لا يتعمل ولم يكتب ولم يؤلف، ومع هذا لا تجد في بلاغته عليه الصلاة والسلام موضعا يقبل التنقيح، أو تعرف له رقة من الشأن، كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغة مقياس وميزان"[2].

وذكر الجاحظ في بيانه أن إخراج الكلام بالكد والعلاج، وجمع النفس له، وحصر الفكر عليه "لا يكون إلا ممن يحب السمعة، ويهوى النَّفْج[3] والاستطالة، وليس بين حال المتنافسين وبين حال المتحاسدين إلا حجاب رقيق وحجاز ضعيف، والأنبياء بمندوحة من هذه الصفة، وفي ضد هذه الشيمة"[4].

فهو ﷺ بنجوة من حب السمعة والاستطالة ومن قصد التكلف، مع علو بيانه الشريف الذي يصدر وكأنما هو صادر عن مراجعة وصنعة وتثقيف، واقرأ في صحيحي البخاري ومسلم، وتأمل البلاغة البالغة والكلام الحكيم الذي جاء على سمت واحد وعلى بناء لغوي واحد، في تكامل عجيب، يأخذ بعضه ببعض، ويصدق أوله آخره.

وإنك إذا نظرت إلى الفصحاء من الشعراء والخطباء والبلغاء المحترفين للكلام قبله وبعده عليه الصلاة والسلام، رأيتهم كيف يحتشدون لفنهم، ويجمعون قواهم العقلية ويهذبون كلامهم، ومع ذلك كله فإنهم لايأمنون العِثار، ولا يسلمون من النقد، بل يلوح على أدبهم التصنع والتكلف، وفي شعراء العرب من لقب بعبيد الشعر وأصحاب الحوليات، وهم الذين يمكثون حولا كاملا في نظم القصيدة الواحدة وتنقيحها، ويحيلون

---

(١) وحي القلم (٣/ ١١).
(٢) السابق (٣/ ١٧).
(٣) النَّفْج: الفخر والكبر.
(٤) البيان والتبيين (٤/ ٢٦).

فيها عقولهم[1]، وربما نزل بهم شيء عظيم من طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين، كما يقول ابن قتيبة[2]، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحوليُّ المحكك[3]، وفي علماء البيان من يوصي بالتريث عند إنشاء الخطب والكتب وإعمال الذهن وكدِّ القريحة وتنقيح الكلم، كيما يستجاد، ويسلم من الزلل[4]، ومع كل أولئك فقلما سلم الكاتب المجيد والشاعر البليغ من عيب وملاحظة، أو على الأقل لا يخلو كلام أحد منهما من ضعف في بعضه، وتفاوت في استيفاء خصوصيات الكلام التابعة لمقتضيات الأحوال واختلاف المقامات، وأما حديثه - بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه - فقد بلغ الطرف الأعلى من البلاغة على مستوى الإنسان، والطرف الأعلى من البلاغة هو مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال، ولهذا لا تجد في حديثه ﷺ تفاوتا في البلاغة، كما لا ترى فيه تكلفا ولا صنعة، وقد بذَّ المصطفى ﷺ بحديثه الشريف وكلامه السائر مصاقع الخطباء وفحول الشعراء ومشاهير البلغاء، ولم يكن لأحد منهم من الموهبة والقدرة ما يعينه على أن ينسج على منواله، وقد برئ بيانه من كل عيب ونقد، وكيف يتطرق إليه العيب! وهو مدد الوحي الإلهي، ونتاج الفطرة الأصيلة! وقد مر بك قريبا كراهته صلى الله عليه وسلم للثرثارين المتفيهقين والمتكلفين المتشدقين في الكلام.

ويذكر نقادُ الأدب في هذا العصر أن أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في الخطابة وفي مراسلاته إلى الأمراء والملوك ككتابه إلى هرقل؛ أنه أسلوب عصري متجدد، يجب أن يَقتدي به المعاصرون في زماننا وفي كل زمان؛ لأن الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصري في جميع العصور[5].

وذكر الرافعي أن أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم أسلوب منفرد، قد بان من غيره بأسباب طبيعية فيه، وأنك لا ترى فيه حرفا مضطربا، ولا لفظة مستكرهة على معناها، ولا كلمةً غيرُها أتم منها أداء للمعنى، وتأتِّيا لسره في الاستعمال، وأن جهات الصنعة في

---

(١) السابق (٨/)، وفيه قال الجاحظ: "وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلَّدات والمنقَّحات والمحكمات".

(٢) الشعر والشعراء (٨٨/١)

(٣) السابق (٧٨/١).

(٤) إحكام صنعة الكلام (٢٤٥) المثل السائر (٣٧/٢).

(٥) عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم (١٠١).

الكلام من اللغة والبيان والحكمة قد سلمت للنبي ﷺ على أتمها، ولم تسلم لبليغ غيره قط، واللغة في النبي ﷺ فطرية، والبيان بيان أفصح الناس نشأة، وأقواهم من الذكاء والإلهام، وأما الحكمة فتلك حكمة النبوة، وتبصير الوحي، وتأديب الله تعالى، ثم قال: "وهذه حقيقة راهنة، دليلها الكلام نفسه بجملته وتفصيله، لا يجهلها إلا جاهل، ولا يغفل عنها إلا غافل، فإذا أنت أضفت إليها ما هناك، من سمو المعنى، وفصل الخطاب، وحكمة القول، ودنو المأخذ، وإصابة السر، وفصل التصرف في كل طبقة من الكلام، وما يلتحق بهذه وأمثالها من مذهبه صلى الله عليه وسلم في الإفصاح، ومنحاه في التعبير، مما خُص به دون الفصحاء، وكان له خاصة من عظمة النفس، وكمال العقل، وثقوب الذهن، ومن النزعة الجيدة، واللسان المتمكن، رأيت من جملة ذلك نسقا في البلاغة قلما يتهيأ في مثول أغراضه، وتساوق معانيه لبليغ من البلغاء، إذ يجمع الخالص من سر اللغة، ومن البلاغة ومن الحكمة، بعضها إلى بعض"[1].

٤. ومن ذلك اختصاصه صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم، كما قال ﷺ "فضلت على الأنبياء بست، أُعطيت جوامع الكلم"، هذا أحد ألفاظ مسلم[2]، وفي المتفق عليه: ((بعثت بجوامع الكلم))[3]. قال البخاري: "جوامع الكلم فيما بلغنا أنَّ الله يجمع له الأمور الكثيرة، التي كانت تُكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين، ونحو ذلك"[4]. وقال النووي: "وكلامه ﷺ كان بالجوامع، قليل اللفظ كثير المعاني"[5]، وقال القرطبي عند قول أبي موسى ﷺ: ((كان رسول الله ﷺ قد أُعطي جوامع الكلم بخواتمه))[6] قال: "يعني بالجوامع: الكلمات البليغة الوجيزة الجامعة للمعاني الكثيرة، ويعني بخواتيم الكلام: أنه يختم كلامه بمقطع وجيز بليغ، كما بدأه بمبدأ وجيز بليغ جامع، ويعني بجملة هذا الكلام – والله أعلم –: أن كلامه من مبدئه إلى خاتمته كله بليغ وجيز"[7]، وقال أبو

(١) إعجاز القرآن (٤٢٣).
(٢) صحيح مسلم (٥٢٣) عن أبي هريرة ﷺ.
(٣) البخاري (٢٨١٥) و(٦٦١١) ومسلم (٥٢٣) عن أبي هريرة ﷺ.
(٤) صحيح البخاري (٦/ ٢٥٧٣).
(٥) المنهاج (٥/ ٥).
(٦) صحيح مسلم (٢٠٠١).
(٧) المفهم (٥/ ٢٦٨).

سليمان الخطَّابي: "إن الله عز وجل لما وضع رسوله موضع البلاغة من وحيه، ونصَّبه منصب البيانِ لدينه؛ اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها، ليباشر في لباسه مشاهد التبليغ، وينبُذَ القول بأوكد البيان والتعريف، ثم أمده بجوامع الكلم التي جعلها ردءاً لنبوته، وعلَما لرسالته، لينتظم في القليل منها عِلم الكثير، فيسهلَ على السامعين حفظُه، ولا يؤودُهم حمله، ومن تتبع الجوامع من كلامه لم يعدم بيانَها، وقد وصفت منها ضروبا، وكتبت لك من أمثلتها حروفا تدل على ما وراءها من نظائرها وأخواتها"[1]، ثم ساق شواهد من الحديث.

وعند ابن الأثير أن جوامع الكلم هي "الجامعة للمعاني المقصودة على إيجازها واختصارها" قال: "وجل كلامه ﷺ جار هذا المجرى"[2].

فتحصل من كلام العلماء أن جوامع الكلم هي العبارات الموجزة التي تحمل في طياتها معاني غزيرة، إن في العقائد أو في الأخلاق أو في الفقه أو في غير ذلك، وإلى هذا المعنى أشارت عائشة رضي الله عنها بقولها: "كان النبي ﷺ يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه".[3] وقد أحسن من قال:

وجوامع الكلم التي فتحت له خضعت لها البلغاء والحكماء[4]

إن الإيجاز من مقامات البلاغة العليا، وهو عمود البناء الذي قامت عليه لغة العرب، وهو مُتنافسهم، والغاية التي تتبارى إليها فصحاؤهم، وقد اتفق العلماء على مدحه، كما يقول الحافظان ابن عبد البر[5] وابن حجر رحمهما الله[6]؛ بيد أن الإيجاز الذي جاءت عليه تلك الأحاديث هو إيجاز القِصر، وهذا النوع لا يتأتى إلا لكبار البلغاء، ولذا كان أعلى طبقات الإيجاز مكانا، وأعوزها إمكانا، وقد أعلى من شأنه البلاغيون، قال العلوي: "وهذا القسم من الإيجاز له في البلاغة موقع عظيم، دقيق المجرى، صعب المرتقى، لا يختص به من أهل

---

(١) غريب الحديث (٦٤/١).
(٢) المثل السائر (٨٠/١).
(٣) البخاري (٣٣٧٥) ومسلم (٣٤٩٣).
(٤) الفتوحات الوهبية (٢٨).
(٥) التمهيد (١٧٦/٥).
(٦) فتح الباري (٢٤٨/١٠).

الصناعة إلا واحد بعد واحد، ومهما عظم المطلوب قل المساعد"[1]، والفرق بين إيجاز القصر وإيجاز الحذف أن الكلام القليل إن كان بعضا من كلام أطول منه فهو إيجاز حذف، وإن كان كلاما يعطي معنى أطول منه فهو إيجاز قصر[2].

قلت: إن إيجاز القصر لا يكون في كلام البلغاء إلا قليلا، بل قال ابن الأثير: إنه لا يوجد في كلامهم إلا شاذا أو نادرا[3]، وأقول: إنه وجد كثيرا في حديث النبي ﷺ، وذلك معلوم مشهور.

ومما جاء على إيجاز القصر قوله ﷺ: ((إذا لم تستح فاصنع ماشئت))[4]، وقوله ﷺ: ((المستشار مؤتمن))[5]، وقوله ﷺ: ((دع مايريبك إلى ما لايريبك))[6]، وقولهﷺ: ((الخراج بالضمان))[7]، قوله ﷺ: ((لا ضرر ولاضرار))[8]، والحديثان الأخيران جُعلا قاعدةً فقهية كبيرة، خُرِّج عليهما من الفروع ما لا يحصى كثرة، ومن هذا القبيل ماخرج مخرج المثل من الحديث، كقوله ﷺ: ((لايلدغ المؤمن من جحر مرتين))[9]، وقد أورد أبو هلال طائفة من هذه الأحاديث الموجزة، ثم قال: "فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحُلَّها، وابنها بناءً آخر، فإنك تجدها في أضعاف هذه الألفاظ"[10].

ومما نمثل به قوله ﷺ: ((الجنَّة تحت ظلال السيوف))[11]، وقد علق عليه القرطبي قائلا:

---

(١) الطراز (٢/ ١١٩).

(٢) عروس الأفراح (٣/ ١٠٣).

(٣) المثل السائر (٢/ ١٠٩).

(٤) رواه البخاري (٥٧٦٩) عن أبي مسعود ﷺ.

(٥) رواه أبو داود (٥١٢٨) والترمذي (٢٨٢٢) وحسنه، وابن ماجه (٣٧٤٥) عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٧٧).

(٦) رواه الترمذي (٢٥١٨) وقال "حسن صحيح" والنسائي (٥٧١١) والحاكم (٢/ ١٣) عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٤٥).

(٧) رواه الإمام أحمد (٢٤٢٢٤) و(٢٥٩٩٩) وأبو داود (٣٥٠٨) والترمذي (١٢٨٦) والنسائي (٤٤٩٠) وابن ماجه (٢٢٤٣) عن عائشة رضي الله عنها، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٨٥).

(٨) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٧٤٥) وابن ماجه (٢٣٤٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال النووي: "له طرق يقوي بعضها بعضا" الأربعون النووية مع شرح ابن عثيمين (٣٢٥).

(٩) رواه البخاري (٥٧٨٢) ومسلم (٢٩٩٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(١٠) كتاب الصناعتين (١٨٤).

(١١) رواه البخاري (٢٦٦٣) ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ.

"هذا من الكلام النفيس البديع، الذي جمع ضروب البلاغة؛ من جزالة اللفظ، وعذوبته، وحسن استعارته، وشمول المعاني الكثيرة، مع الألفاظ المعسولة الوجيزة، بحيث يعجز الفصحاءُ اللُّسْنُ البلغاء عن إيراد مثله، أو أن يأتوا بنظيره وشكله؛ فإنه استفيد منه مع وجازته الحضُّ على الجهاد، والإخبار بالثواب عليه، والحضُّ على مقاربة العدو، واستعمال السّيوف، والاعتماد عليها، واجتماع المقاتلين حين الزحف بعضهم لبعض، حتى تكون سيوفهم بعضها يقع على العدو، وبعضها يرتفع عنهم؛ حتى كأن السيوف أظلت الضاربين بها، ويعني أن الضارب بالسيف في سبيل الله يدخله الله الجنة بذلك"[1].

ومما جاء على ذلك أيضا أكثر أحاديث الدعاء، فإن أدعيته عليه الصلاة والسلام موجزة جامعة، كقوله ﷺ: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى))[2]، فهذا الدعاء شامل لخيري الدنيا والآخرة، وكثير من الناس اليوم يطنبون في أدعيتهم، ويأتون بالغرائب، وليتهم أخذوا بالأدعية الواردة في السنة، فإن الدعاء بها أحرى بالإجابة، مع ما هي عليه من الرشاقة والإيجاز، ومن ذلك أيضا دعاؤه ﷺ: ((اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر))[3] قال ابن القيم رحمه الله: "فجمع هذا الحديث الشريف في استعاذته ﷺ أصول الشر وفروعه، ومباديه وغاياته، وموارده ومصادره، وهو مشتمل على ثمان خصال كل خصلتين منها قرينتان"[4].

ومما تجلى فيه الإيجاز النبوي كتبه ﷺ إلى الملوك والزعماء، التي يدعوهم فيها إلى الإسلام، وهي بحق كتب خالدة، تلوح عليها علائم النبوة، وتوقيعات متجلية، تبرز ـ على وجازتها ـ حقيقة الإسلام كما هي، وما يحمله من معاني العظمة والخير للبشر، ومن ذلك كتابه ﷺ إلى ملك الروم هرقل، ونصه: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم؛ سلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام؛ أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأَرِيسِيِّين[5]،

---

(١) المفهم (٣/ ٥٢٥).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٣) رواه البخاري (٢٦٦٨) ومسلم (٢٧٠٦) عن أنس ﷺ، ورواه مسلم أيضا (٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم ﷺ.

(٤) زاد المعاد (٢/ ٣٥٦).

(٥) الأريسيون: أتباع هرقل من أهل مملكته، جمع أريسيٍّ، وهو في الأصل الحراث والفلاح. فتح الباري (١/ ٥١).

و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون))[1]، وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام: ((أسلم تسلم))، فقد اتفقت كلمة الشراح على أنه "في نهاية من الاختصار، وغاية من الإيجاز والبلاغة، وجمع المعاني، مع ما فيه من بديع التجنيس، فإن (تسلم) شامل لسلامته من خزي الدنيا، بالحرب والسبي والقتل وأخذ الديار والأموال ومن عذاب الآخرة"[2]، وقد أخذوا من الحديث استحباب البلاغة والإيجاز، وتحري الألفاظ الجزلة في المكاتبة[3].

ومما جاء على الإيجاز الأحاديثُ الجوامع، قالوا: وهي الأحاديث التي عليها مدار الدين، وأملى في ذلك ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ)ستة وعشرين حديثا في مجلس سماه: الأحاديث الكلية، وقد أخذ هذه الأحاديثَ الحافظُ النووي وأتمها أربعين، وهي التي اشتهرت بالأربعين النووية، ولم تزل محل عناية العلماء شرحا واستنباطا، حتى يوم الناس هذا[4]، ومما نذكره منها الآن حديث ((إنما الأعمال بالنيات))[5]، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "وقد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث، قال أبو عبد الله[6]: ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث. واتفق عبد الرحمن بن مهدي والشافعي ـ فيما نقله البويطي عنه ـ وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني وأبو داود والترمذي والدارقطني وحمزة الكناني على أنه ثلث الإسلام، ومنهم من قال ربعه... وقال الشافعي: يدخل في سبعين بابا، ويحتمل أن يريد بهذا العدد المبالغة، وقال عبد الرحمن بن مهدي أيضا: ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب. ووجَّه البيهقي كونه ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها"[7].

---

(١) البخاري (٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٤٧٠٧) عن أبي سفيان ﷺ.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٠٨/١٢) عمدة القاري (١١٣/١) مرقاة المفاتيح (٣٤٣/٧)

(٣) ينظر: المراجع السابقة.

(٤) من آخر ماصدر من الدراسات عليها (الفوائد المستنبطة من الأربعين النووية لشيخنا الكبير عبد الرحمن البراك حفظه الله)، وقد نشر عام ١٤٣٠هـ

٥) تقدم تخريجه، وهو في الصحيحين عن عمر ﷺ.

(٦) هذا تحريف، والصواب أبو عبيد، كما في الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١٥٩/١) لابن الملقن.

(٧) فتح الباري (١٧/١).

ومن ذلك أيضا حديثُ جبريل المشهور الذي فيه ذكر الإيمان والإسلام والإحسان[1]، فهو جامع لأمهات المعاني، قال عنه القرطبي: "هذا الحديث يصلح أن يقال له أمٌّ السنة، لما تضمنه من جمل علم السنة"[2]، وقال القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ): "هذا الحديث اشتمل على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلَّها راجعة إليه ومتشعبة منه"[3].

وذكر الطيبي (ت ٧٤٣هـ) أن هذا الحديث لما كان مشتملا على أمهات أصول الدين استهل به البغوي كتابيه شرح السنة والمصابيح، على طريقة براعة الاستهلال، اقتداء بالقرآن في افتتاحه بالفاتحة، لأنها تضمنت علوم القرآن إجمالا[4]،وكلام الشراح في هذا كثير، ولا يُعرف في الدراسات الأدبية عملٌ أرفعُ شأنا من الوعي بما يحتويه الكلام من غزارة المعاني وشمولها[5].

يقول الأستاذ الزيات: "الإيجاز غالب على أسلوب الرسول ﷺ، لأن الإيجاز قوة في التعبير، وامتلاءٌ في اللفظ، وشدة في التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح، وقوة الشعور وقوة الذهن، وهذه القوى كلها على أكمل ماتكون في الرسول ﷺ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه وأحاديثه، حتى عدت من خصائصه"[6].

ومما يضاف إلى حسنات الإيجاز أن السامعين لا يملون الحديث ولا يدب إليهم سآمة، خلاف ما يقع لهم عند الإطناب والإطالة، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يتحاشى أن يسأم القوم، وكان يتخولهم بالموعظة مخافة السآمة عليهم، كما يقول ابن مسعود ﷺ.[7]، ومن محاسن الإيجاز أنه سبب لحفظ العلم وأدائه كما هو، دون نقص أو زيادة، فإن الكلام إذا طال صعب ضبطه، وأنسى بعضه بعضا.

---

(١) رواه مسلم عن عمر ﷺ.

(٢) المفهم (١/١٥٣).

(٣) إكمال المعلم (١/٢٠٤).

(٤) الكاشف عن حقائق السنن (١/١١٠).

(٥) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري (٢١٤).

(٦) وحي الرسالة (٣/٧٩).

(٧) رواه البخاري (٦٨) ومسلم (٢٨٢١).

إن هذه الشريعة الخاتمة في مبدأ أمرها إنما قامت على الحفظ، وكان النبي ﷺ قد أذن لهم أن يكتبوا القرآن ونهاهم أن يكتبوا الحديث[1] خشية أن يختلط شيء منه بالقرآن، فدوّن القرآن، واستودعت السنة صدور الرجال، حتى أذن لهم النبي ﷺ بتدوينها، وكان من أسباب حفظها في ذلك العصر وفيما بعده من العصور ما كانت عليه من إيجاز العبارات، وسهولة الألفاظ، وتآخي الجمل، وترتب المعاني.

إن الإيجاز في كلامه ﷺ ظاهرة حرية بالدرس المستقل، لوفرة موجزاته وقوة بنائها، حتى كأنها في أفرادها البنيان المرصوص، بحيث لا يحسن اختصارُها مرة أخرى، ولا إعادةُ بنائها مرة أخرى، وقد سئل أحد البلغاء: ما الاختصار؟ فقال: الذي اختصاره فساد، وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز، قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعيد[2]، وقد عُني بعض المحدِّثين كالقضاعي في مسند الشهاب، بجمع مختارات من حكم النبي ﷺ ومأثوراته الرشيقة السائرة[3]، وسار على ذلك طائفة من الكتاب والأدباء[4]، على أنه لم يوجد عند غيره ﷺ من فصحاء الأمم عُشرُ معشار ما وجدوه عنده عليه الصلاة والسلام من تلك الموجزات، والحاصل أن الله جل وعلا قد جمع لنبيه صلى الله عليه وسلم أعظم المعاني في أحسن الأساليب وأوجزها[5].

وإذ نقول ذلك فلا يعني أن جميع كلامه ﷺ من بابة الإيجاز، فإنه قد يسلك طريق الإطناب إذا استدعاه الأمر وكان ثم وجه للإطالة، والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، ففي صحيح مسلم عن عمرو بن أخطبَ رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعِد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأعلمُنا أحفظُنا"[6]. فحين أراد النبيﷺ الإخبار بما سيكون من حوادث وفتن في آخر الزمان أفاض في حديثه ليحصل البلاغ المبين

(١) رواه مسلم (٣٠٠٤) عن أبي سعيد الخدري ﷺ. وينظر: السنة قبل التدوين (٣٠٧).
(٢) كتاب الصناعتين (١٧٩).
(٣) مطبوع بتحقيق حمدي السلفي، نشرته مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٥هـ.
(٤) ينظر: زهر الآداب (٢٥/١) الإعجاز والإيجاز (١٩).
(٥) بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم (٥١).
(٦) صحيح مسلم (٢٨٩٢).

بذلك، وإن كانت هذه حادثة نادرة لم ينقل أنها تكررت، فيعلم بذلك أن أكثر حديثه ﷺ جار على أسلوب الإيجاز.

٥. ومن خصائص حديثه صلى الله عليه وسلم، وهي بسبيل مما تقدم، ثراءُ الأفكار والمعاني وسخاؤها، ومن آثار ذلك أنك ترى الحديث الواحد يتجدد عطاؤه على الأيام، وكلما زدته فكرا زادك معنى، وربما كان الحديث وجيز العبارة قليل الجمل، فتراه "وكأنه دوائر يتولد بعضها من بعض، وكأنه تجري فيه شرايين تتدفق بالمعاني والإشارات"[١]، ومن هنا قال ابن تيمية رحمه الله: "من أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتدبره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام، لا منظومه ولا منثوره"[٢]، فكلام الرسول ﷺ مبارك، أي كثير الخير سخي، لا ينقطع عطاؤه، وقد قال أحد البلغاء: "إن من أسباب رفعة طبقة الكلام أن يكون مستعداً لاستنباط كثير من الفروع والوجوه"[٣]، وهذا الوصف منطبق على كلام النبي عليه الصلاة والسلام.

ونمثل على ذلك بأحاديث الأحكام[٤]، فإنها جاءت على طرق التعبير الثلاثة الإيجاز والإطناب والمساواة، وهذه الأحاديث لم يزل العلماء يستقون منها الدروس والأحكام والحكم، على تعاقب القرون، مما يدل على عظمة هذه الشريعة وسماحتها وسعة أحكامها، حيث تتناول تلك الأحاديث ما لا يتناهى من الوقائع، وكل مايمكن تصوره من الحوادث والنوازل المتجددة على تباعد الموطن واختلاف الأجيال، وما جاءت على هذا النحو إلا لأن رسالة المبعوث بها عامة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ (سبأ).

وكم من حديث جاد بعشرات الفوائد، وقد ذكر ابن حجر أن أحد من كان في عصر شيوخه كتب مجلدين في حديث أبي هريرة في المُجامع في رمضان[٥]، جمع فيهما ألف

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري (٢٦٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٧٤٨).

(٣) إشارات الإعجاز للنورسي (١١٨).

(٤) قال ابن القيم في إعلام الموقعين (٣/٥٧١): "أصول الأحكام التي تدور عليها الشريعة نحو خمس مئة حديث وفرشها وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث"

(٥) رواه البخاري (١٨٣٤) ومواضع أخرى، ومسلم (١١١١) عن أبي هريرة ﷺ.

فائدة وفائدة[1]، ونقل النووي أن ابن خزيمة وابن جرير صنفا في حديث بريرة[2] تصنيفين كبيرين، وذكر ابن حجر أن بعض المتأخرين بلغ بالفوائد من حديث بريرة أربع مئة فائدة، واستنبط ابن الصباغ من مشايخ القرويين[3] أربع مئة فائدة من حديث ((يا أبا عمير مافعل النُّغير!))[4].

يقول العقاد: "إن الإبلاغ أقوى الإبلاغ في كلام النبي ﷺ هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، وقد بسطها الشارحون في مجلدات"[5]، ولم ينقطع الاستنباط، بل بقي حتى هذا العصر، ولله الحمد، فهاهم علماء الإسلام في الأقطار المختلفة يشرحون الأحاديث ويستخرجون منها الأحكام، ويضيفون إلى ما قاله السابقون، كما يرى شاهد ذلك لدى العلامة الشيخ محمد ابن عثيمين (ت ١٤٢١هـ)، أحد كبار علمائنا المعاصرين، وصاحب اليد الطولى في انتزاع الفوائد المبتكرة والدقائق المعتبرة، كما تشهد له بذلك أسفاره الكثيرة، ومنها شرح صحيح البخاري، وشرح رياض الصالحين وشرح بلوغ المرام في أحاديث الأحكام لابن حجر، فإنه رحمه الله قد استنبط من حديث جابر في صفة حج النبيﷺ[6] مئة وأربعا وأربعين فائدة[7]، كما استنبط من حديث ابن مسعود ﷺ في التشهد[8] تسعا وأربعين فائدة[9].

٦. ومن الخصائص في الحديث النبوي الكريم حسن عرض الفكرة الواحدة أو الأفكار واستيعابها للمعاني المقصودة وجودة تسلسلها، بحيث تتساوق المعاني متتابعة وكأنها ماء يطرد في نهر مستقيم القاع، أما قوة الأفكار وصواب المعاني فأمر لا يرتاب فيه إلا الخصوم، وحسب هذا النبي الخاتم ﷺ أنه جاء بكل خير، ودعا إلى الهدى،

---

(١) فتح الباري (٥/ ٢٢٩).

(٢) بريرة جارية كاتبت أهلها، ولكنهم اشترطوا الولاء لهم، فأنكر عليهم النبي ﷺ ذلك، في خطبة مشهورة، والخبر في البخاري (٤٤٤) ومواضع أخرى، ومسلم (١٠٧٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) تعاشيب للأستاذ عبد الله كنون (٩٣).

(٤) رواه البخاري (٥٧٧٨) ومسلم (٢١٥٠) عن أنس ﷺ، والنُّغير طائر، تصغير نغر.

(٥) عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم (١٠١).

(٦) رواه مسلم (١٢١٨).

(٧) وقد طبع في رسالة مستقلة عام ١٤٢٤هـ، نشر دار المحدث بالرياض.

(٨) رواه البخاري (٨٠٠) ومسلم (٤٠٢).

(٩) فتح ذي الجلال والإكرام (٣/ ٣٥٣).

وأخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وترك الناس على البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ونستشهد على هذه الخصيصة بحديث أبي ثعلبة الخُشَني ﷺ يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله عز و جل فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها))[1]، إن هذا الحديث يعرض أصول الشريعة، ويبين ما يحل وما يحرم وما هو مباح، على طريقة التدلي البديع، حيث بدأ بالفرائض فالمحرمات ثم المباحات، ومع مافيه من الإيجاز، فإن هذا الحديث أصل في ثبوت الشرع، وجميعُ نصوص الأوامر والنواهي تفصيل له.

ومن ذلك أيضا حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: ((إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب))[2].

يعرض هذا الحديث لبيان الحلال والحرام في الشريعة وأنهما بيِّنان، ثم يتطرق إلى ذكر المشتبهات لأخذ الحيطة والحذر، ثم شبه المكلف بالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وهذا تصوير محسوس لأمر عقلي يزيد به وضوحا وجلاء، أما الحمى المحظور فمحارم الله، وأما القلب فهو مصدر الصلاح إذا بعد عن المحارم، أو الفساد إذا وقع فيها، فما ذا يقول القارئ في هذه المعاني وطريقة عرضها؟ أليست أنموذجا للبيان النبوي الذي يتسم بعظمة المقصد، وكثرة المعنى، وسداد الأسلوب، ووجازة العبارة، فلا تزيد ولا فضول.

و لقد نبه عبد القاهر الجرجاني إلى أن الكلام البليغ يدل على نفسه بحسنه بادي الرأي، كالمسك المعتق الفواح، كما ينوه بمقام منشئه، يقول: "ومنه ـ أي من الكلام ـ ما أنت ترى الحسن يهجُم عليك منه دفعة، ويأتيك منه ما يملأ العين ضَرَبَةً حتى تعرف من

(١) رواه الدارقطني في السنن (٤/ ١٨٤) وحسنه النووي في الأربعين. بشرح ابن عثيمين. (٣٠٩).
(٢) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

البيت الواحد مكان الرجل من الفضل، وموضعه من الحِذق، وتشهد له بفضل المُنَّة، وطول الباع"[1].

وكان العيني قد تكلم على هذا الحديث وبسط معانيه، ومما قال: "أجمع العلماء على عظم موقع هذا الحديث، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، قالوا: سبب عظم موقعه أنه عليه السلام نبه فيه على صلاح المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها، وأنه ينبغي أن يكون حلالا، وأرشد إلى معرفة الحلال، وأنه ينبغي ترك المشتبهات، فإنه سبب لحماية دينه وعرضه، وحذر من مواقعة الشبهات، وأوضح ذلك بضرب المثل بالحمى، ثم بين أهم الأمور، وهو مراعاة القلب، وقال ابن العربي: يمكن أن يُنتزع من هذا الحديث وحده جميع الأحكام. وقال القرطبي: لأنه اشتمل على التفصيل بين الحلال وغيره وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب فمن هنا يمكن أن يرد إليه جميع الأحكام"[2].

ثانيا: الخصائص المتممة للفصاحة في الحديث:

وهي خصائص تحف بلغة الحديث ونظمه، وكان لها أثر ظاهر في الحديث النبوي الشريف لأنها وسائل مكملة للفصاحة، ويمكن أن نقول: إن هذا النوع من الخصائص كان في حياته صلى الله عليه وسلم حيث شهدها الصحابة وسجلوها لنا، وكان لها الأثر الكبير في نفوس المدعوين والمستمعين للنبي عليه الصلاة والسلام والآخذين عنه، فمن ذلك:

١. حسن منطقه صلى الله عليه وسلم، فكما صان الله لسان نبيه عن التكلف فقد نزه الله نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وحماه من تعقيد الصوت، ومن التمتمة[3] والفأفأة[4] والرُّتَة[5] والتنطُّع[6] والتمطُّق[7] والتفيهُق[8]، إلى غير ذلك من العيوب التي

---

(١) دلائل الإعجاز (٨٨).

(٢) عمدة القاري (٣٤١/١)، وكلام القرطبي منقول بتصرف من المفهم (٤٩٩/٤).

(٣) التمتمة: رد الكلام إلى التاء والميم.

(٤) الفأفأة: ترديد الفاء في الكلام.

(٥) الرَّتة: العجمة.

(٦) التنطع: التعمق في إخراج الحروف.

(٧) التمطُّق: ضم الشفتين ورفع اللسان إلى الفك الأعلى.

(٨) التفيهق: الثرثرة وملء الفم بالألفاظ.

يصاب بها الخطباء المفلقون والشعراء المصاقع، على ماذكره الجاحظ من أوصافهم في مواضع من البيان والتبيين، وذكر الرافعي أنه لا يعرف بليغ قط سلمت له جهات الصنعة في كلامه من اللغة والبيان والحكمة على أتمها بحيث لم يزغ عن الطريقة[1]، أما نبي الله محمد ﷺ فقد منحه الله البيان المبين والصوت الحسن[2]، وجعل منطقه مساوقا لطبيعة اللغة، فتم له إحكام الضبط وإتقان الأداء، فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم[3]. قالت عائشة رضي الله عنها: ((لم يكن رسول الله ﷺ يسرُد الحديث كسردكم)) وهو في الصحيحين[4]، وجاء في السنن: ((ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصلٍ، يحفظه من جلس إليه))[5]، ومما جاء في وصف أم معبد قولها فيه ﷺ: "حلو المنطق، فصل لانزر ولا هذر، كأن منطقه خَرَزات نُظمن يتحدَّرن"[6].

إن الفصاحة صفة تجتمع للكلام ولهيئة النطق بالكلام ولموضوع الكلام، فيكون الكلام فصيحا وهيئة النطق به غير فصيحة، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب[7]، ومن هنا تفاوت البلغاء في أقدارهم وتفاضلوا في طبقاتهم، أما نبي الله محمد ﷺ فقد تكاملت له الفصاحة بجميع جوانبها في كلامه، وفي هيئة نطقه بكلامه، وفي موضوع كلامه، وإنك لتجد جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في مقاله، فكان أعرب العرب، عليه الصلاة والسلام.

٢. إلقاؤه صلى الله عليه وسلم الكلامَ مفصَّلا على التوالي وبصورة هادئة، فلا يتابع الحديث استعجالا بعضه في إثر بعض فيلتبس على السامع أو يعزب عنه شيء منه، أو

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٤٢٥).

(٢) مختصر الشمائل المحمدية للألباني (١٦٨) وزاد المعاد (١/١٨٣).

(٣) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل (١٢).

(٤) رواه البخاري (٣٣٧٥) ومسلم (٢٤٩٣).

(٥) الترمذي (٣٦٣٩) وحسنه، وحسنه الألباني أيضا في صحيح الترمذي (٢٨٧٨)، ورواه الإمام أحمد (٢٦٢٠٩) بنحوه.

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٣/٩) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٢٠٩): "قصة أم معبد مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا".

(٧) عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم (٢٩).

يختلط بعضه ببعض، فكلامه ﷺ ليس بهَذٍّ مسرع لا يحفظ، بل كان يفصل بين الكلمة وأختها، فلا تتداخل الكلمات والحروف، كما أن كلامه ليس متقطعا تتخله السكتات بين أفراد الكلام[1]، بل كان عليه الصلاة والسلام يتكلم بكلام مفصل، يحدث الحديث ولو أراد العاد أن يعده لأحصاه[2].

ولاغرو في هذا المهل! فإنه عليه الصلاة السلام مأمور بالبلاغ المبين وبإقامة الحجة، وتقدم قريبا قول عائشة رضي الله عنها المتفق عليه: ((لم يكن رسول الله ﷺ يسرُد الحديث كسردكم))، وفي السنن ((ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصلٍ، يحفظه من جلس إليه))، وعند الإسماعيلي ـ كما قال الحافظ في الفتح ـ: "إنما كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلا، فهما تفهمه القلوب"[3]، وقولها: "فصلا" أي بيِّنا ظاهرا يكون بين أجزائه فصل، وليس معنى ذلك أنه عليه الصلاة والسلام بطيء في الكلام، فإن البطء مملول، وهو ضرب من العي، ويبعث على الكسل والرقاد، فتبين من ذلك أن إلقاءه الحديث ﷺ ليس بالسريع المخل ولا بالبطيء الممل، بل هو بين بين، وخيار الأمور أوساطها.

٣. ومن ذلك استعانته ﷺ في تثبيت المعاني بالإشارة بيده وأصابعه إشارة مناسبة للمعنى، حتى تصل إلى الأذهان سريعا، وتتأصل في النفوس، ومن هذا ما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ (النساء)، فوضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه[4]، أي تحقيقا لصفتي السمع والبصر، لا إثباتا للتشبيه بين الخالق والمخلوق، ومنه ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: ((فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه إياه)) وأشار بيده يقللها[5]، ومنه ما رواه سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ قال:

---

(١) زاد المعاد (١/١٨٢).

(٢) كما قالت عائشة رضي الله عنها، وخبرها مخرج في الصحيحين: البخاري (٣٣٧٥) ومسلم (٣٤٩٣).

(٣) فتح الباري (٦/٦٦٩).

(٤) سنن أبي داود (٤٧٢٨) وإسناده صحيح، وقال الحافظ في الفتح (١٣/٣٨٥): "سنده قوي على شرط مسلم".

(٥) البخاري (٨٩٣) ومسلم (٨٥٢).

((بعثت أنا والساعة كهذه من هذه، أوكهاتين)) وقرن بين السبابة والوسطى[1]. فهذه الإشارات ذات دلالات، ولها بلاغة، ولو قدر أن الألفاظ وقعت موقعها، فإنها لا تعطي عطاءها، ولا تغني غنائها.

وقد بوب البخاري في صحيحه في كتاب العلم فقال: "باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس"[2]، وساق فيه حديثين وأثرا.

ويتصل بذلك تغيير هيئة المتكلم إشعارا بأهمية الكلام، ومنه ما جاء في حديث أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) ثلاثا، قالوا بلى يا رسول الله، قال: ((الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)) وكان متكئا فجلس، فقال: ((ألا وقول الزور)) قال الراوي: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[3]. فجلوسه عليه الصلاة والسلام بعد أن كان متكئا، فيه جمع لقلوب الصحابة وأبصارهم نحوه ﷺ، ليلفت أنظارهم إلى شناعة قول الزور، وهو الباطل، وعدم التساهل في أمره، ويلحظ في الحديث وسيلة أخرى من وسائل التوكيد والتنبيه هي التكرار، فتعانقت في الحديث الوسيلتان، والتقت البلاغتان؛ بلاغة القول وبلاغة الفعل.

إن استعمال الأيدي والأصابع واختلاف هيئة المتكلم لإيصال المعاني وتثبيتها في النفوس هو طبقة من البلاغة ومرتبة من البيان، كما أثر عن البلغاء الأوائل[4]، حيث توظف الحركات والإشارات لتخدم المعاني، وهو أيضا ضرب مما يعرف اليوم بوسائل الإيضاح، وهي لدى التربويين من الطرق المهمة في نجاح العملية التعليمية، وعلى ذلك فتكون السنة النبوية سابقة في هذا المضمار. ويذكر الجاحظ أن "الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العونُ هي له، ونعم الترجمانُ هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط، وبعدُ فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلاف في طبقاتها ودلالتها، وفي الإشارة بالطرف والحاجب، وغير ذلك من

(١) البخاري (٤٩٩٥) ومسلم (٢٩٥١) عن أنس ﷺ.
(٢) صحيح البخاري (١/٤٤).
(٣) البخاري (٢٥١١) ومسلم (١٤٣).
(٤) البيان والتبيين (١/١١٦).

الجوارح مِرْفق كبير[1]، ومعونة حاضرة، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاصٍّ الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة، هذا، ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان"[2].

وما يورد شاهدا في هذا من أخبار البلغاء ما نقله الجاحظ عن أبي شمر أحد أئمة المتكلمين أنه كان إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه، ولم يحرك رأسه، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة، وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته، وكان يقول: ليس من المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلمة إبراهيم بن سيَّار النظام عند أيوب[3]بن جعفر، فاضطره بالحجة، وبالزيادة في المسألة، حتى حرك يديه، وحل حُبوته وحبا إليه، حتى أخذ بيديه، ففي ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر إلى قول إبراهيم.

ثم علل الجاحظ أن الذي غرَّ أبا شمر أولا، وموَّه له هذا الرأي أن أصحابه كانوا يستمعون منه، ويسلمون له، ويميلون إليه، ويقبلون كل ما يورده عليهم، ويثبته عندهم، فلما طال عليه توقيرُهم له، وتركُ مجاذبتهم إياه، وخفَّت مؤونة الكلام عليه، نسي حال منازعة الأكفاء، ومجاذبة الخصوم، قال أبو عثمان: وكان شيخا وقورا، وزِمِّيتا[4]رَكينا، وكان ذا تصرف في العلم، ومذكورا بالفهم والحلم[5].

ويتصل بهذا سكوته ﷺ في بعض ما يُسأل عنه، كما إذا لم يكن لديه جواب فيسكت انتظارا لنزول الوحي، أو يرى أن السائل قد فهم الجواب من مجرد السكوت، أو يكون السؤال في غير محله، ومن ذلك ما ورد في حديث أبي هريرة في الرجل الذي سأل النبي ﷺ وهو يحدث فقال: متى الساعة؟ فلم يجبه، ثم قال: ((أين أراه الرجل الذي سأل عن الساعة؟)) قال: ها أنا يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: ((فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة))[6]، وقد ذكر أرباب البيان أن البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه

---

(١) المِرْفق: ما يستعان به.

(٢) السابق (١/ ٧٨، ٧٩).

(٣) من رجال الدولة عند العباسيين، ومن أعلم الناس بأنساب قريش، وله ذكر في كتب الجاحظ.

(٤) الزِّميت: الحليم الساكن القليل الكلام.

(٥) البيان والتبيين (١/٩١، ٩٢).

(٦) رواه مسلم (٢٩٥٣)، وينظر: فتح الباري (٩/ ٢٢).

كثيرة، ومنها ما يكون في السكوت[1].

ومما جاء في وصف ابن القيم للنبي ﷺ قوله: "كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، وإذا كره الشيء عرف في وجهه"[2].

إلى غير ذلك من الخصائص البلاغية والظواهر البيانية العامة في الحديث النبوي الكريم، وهي التي كانت بإذن الله من أسباب خلوده، وبقائه غضا طريا، وعينا معينا، على مر الأيام، وإنه سيبدو لغيري أكثر من ذلك، لأن مادة البحث من القول المبارك الذي سماه الله حكمة في قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴿١١٣﴾﴾(النساء)، وأحاديث رسول الله ﷺ كالروضة الغناء فيها من كل نبت كريم، ففيها أبلغ الحكم، وأجمع الكلم، وأروع الأساليب، وأعظم الهدايات، وأسمى التشريعات، وكل حديث من أحاديثه عليه الصلاة والسلام حافل بالنكات النظمية والصور البيانية، لأنها جاءت مطابقة للحال، وقد روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعا: ((أعطيت مفاتيح الكلم))[3]، والمفاتيح جمع مفتاح، وهو ما يتوصل به إلى استخراج المغلقات التي يتعذر الوصول إليها، فأخبر ﷺ أنه أوتي مفاتيح الكلم، وهو ما يسر الله له من البلاغة والوصول إلى غوامض المعاني، ومحاسن الكلام التي أغلقت على غيره وتعذرت، ومن كان في يده مفاتيح شيء مخزون سهل عليه الوصول إليه، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن البلاغة المأمور بها في قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ (النساء) هي المعاني والبيان"[4]، ولهذا تجد في حديثه ﷺ من الفنون البلاغية ضروبا، ومن أنواع المعاني شيئا عجيبا، فتجد أساليب التوكيد والتشويق والإجمال والتفصيل كقوله ﷺ: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان...))[5]، وأساليب القصر والحذف والذكر، كما تجد في الحديث روائع التشبيهات والكنايات والتمثيل والاستعارات التي تثير النفوس، وتؤثر في القلوب، ولذا قال البلاغيون: إن المجاز أبلغ من الحقيقة[6]، ومن التشبيهات النبوية قوله

---

(١) البيان والتبيين (١/ ١١٥).
(٢) زاد المعاد (١/ ١٨٢).
(٣) البخاري (٦٥٩٧).
(٤) منهاج السنة (٨/ ٥٤).
(٥) رواه البخاري (١٦) ومسلم (٦٧) عن أنس ﷺ.
(٦) الإيضاح (٤٦٨).

ﷺ: ((ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى))[1]، قال القاضي عياض: "فتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية"[2]، ومن الاستعارات قوله عليه الصلاة والسلام: ((ارفق يا أنجشة ـ ويحك ـ بالقوارير))[3]، يريد النساء، وهذه استعارة لطيفة، شبههن بالقوارير لأمور ثلاثة:

ـ لما هن عليه من حفظ الأجنة، والوعاءُ كالقارورة تحفظ مافيها.

ـ ولاختصاصهن بالصفاء والصقالة والحسن والنضارة.

ـ ولما فيهن من الرقة والمسارعة إلى التغير والانثلام، كما يتسارع الانكسار إلى القارورة لرقتها[4]. وتأمل كيف جمعت الاستعارة في الحديث هذه المعاني.

كما تجد في البيان النبوي من بدائع البديع كالسجع والأسلوب الحكيم والجناس، كقوله ﷺ: ((إنما الماء من الماء))[5]، إلى غير ذلك من الأنواع البلاغية التي يزخر بها الحديث، بل هي عمد بنيانه، وأسس أركانه، وليس الغرض الاستقصاء، وإنما التمثيل.

كما كان عليه الصلاة والسلام يضرب الأمثال، وقد قالت البلغاء: "إذا جُعل الكلام مثلاً، كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين في المعنى، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث"[6]، ومن الشواهد النبوية على ذلك ما جاء في حديث جابر ﷺ مرفوعا: ((مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي))[7]، ويذكر بعض الباحثين أنه اجتمع في أمثال الرسول ﷺ أربعة أمور لم تجتمع في غيره من الكلام، وهي إيجاز اللفظ، وجودة الكناية، وحسن التشبيه، وإصابة المعنى[8].

---

(١) البخاري (٥٦٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) إكمال المعلم (٥٦/٨) وفي المطبوع تحريف، وهو على الصحة في فتح الباري (٤٥٤/١٠).

(٣) رواه البخاري (٥٨٥٦.٥٨٥٧) ومسلم (٢٣٢٣)، عن أنس ﷺ، واللفظ للبخاري.

(٤) الطراز (٤٠٧/١).

(٥) رواه مسلم (٣٤٣) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٦) الأدب الكبير والأدب الصغير (٤).

(٧) رواه البخاري (٦١١٨) ومسلم (٢٢٨٥).

(٨) من روائع الأدب النبوي (٢٠٥).

وقد يستهل النبي عليه الصلاة والسلام حديثه بسؤال يستثير الحضور لجذب اهتمامهم، وتلقي ما يلقى إليهم بوعي، كقوله ﷺ في خطبة حجة الوداع: ((أيُّ يوم هذا؟ أيُّ بلد هذا؟ أيُّ شهر هذا؟))[1]، ثم بين لهم أن دماءهم وأموالهم وأعراضهم بينهم حرام كحرمة الثلاثة، قال القرطبي: "وقوله: ((أيُّ يوم هذا؟)) و((أيُّ بلد هذا؟)) و((أيُّ شهر هذا؟)) وسكوته بعد كل واحد منها، كان ذلك منه استحضارًا لفهومهم، وتنبيهًا لغفلتهم، وتنويهًا بما يذكره لهم، حتى يُقبلوا عليه بكليتهم، ويستشعروا عظمة حرمة ما عنه يخبرهم"[2]، وكما تميزت أحاديثه عليه الصلاة والسلام ببراعة الاستهلال، واستعمال أساليب الطلب واستمالة الأذهان، فقد تميزت كذلك ببراعة المقطع وحسن الختام، وقد أشار إلى ذلك أبو موسى الأشعري ﷺ بقوله: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وخواتمه"[3]، قال المناوي: "خواتم الكلام يعني حسن الوقف، ورعاية الفواصل، فكان يبدأ كلامه بأعذب لفظ وأجزله وأفصحه وأوضحه، ويختمه بما يشوق السامع إلى الإقبال على الاستماع مثله، والحرص عليه"[4]، ومن شواهد ذلك ما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما روى عن ربه تبارك وتعالى قال: ((إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عز و جل عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك))[5].

ففي قوله ﷺ: ((ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك)) ختام حسن، لما فيه من الحث على العمل، وترك التسويف والتواني، ففيه طي للمعنى المتقدم، وإصابة للغرض، بأحسن عبارة، وألطف إشارة.

---

(١) رواه البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) عن أبي بكرة ﷺ.

(٢) المفهم (٥/ ٤٧).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٣٧٦)، قال محققه: "إسناده صحيح".

(٤) فيض القدير (١/ ٥٦٥).

(٥) رواه مسلم (١٣١).

وهناك أشياء تلفت النظر في حديثه عليه الصلاة والسلام، كمثل عفة لسانه ﷺ وبعده عن الألفاظ النابية والمكشوفة، والعبارات الخادشة للحياء، مع أنه عليه الصلاة والسلام ـ لاقتضاء التشريع ـ تحدث في مسائل خاصة كطهارة العورات، وفي العلاقات الزوجية، والقذف والملاعنة، ودعا إلى لزوم العفة والأدب في الكلام، وقَصَّ من أخبار الأولين والآخرين، ومع ذلك لا تجد لفظا ساقطا، ولا كلمة مستهجنة في حديثه ﷺ، بل كان يستعمل الكنايات اللطيفة، أو الألفاظ الصريحة لكن لا من قرب، وخذ قوله ﷺ في التعبير عن أحد موجبات الغسل: ((إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل))[1]، وقصة الثلاثة أصحاب الغار حاكيا عن المرأة: ((اتق الله! ولا تفضض الخاتم إلا بحق))[2]، كنى بالخاتم عن بكارتها، وأنها بمنزلة الشيء المختوم الذي لم ينكسر ختمه، وقوله ﷺ لجابر ﷺ حين سايره من مكة إلى المدينة، وقد سأله عمن نكح، هل بكرا أو ثيبا؟ فقال له: ((إذا قدمت فالكيسَ الكيسَ))[3]، كنى بذلك عن حسن التأتي ولطيف المعاشرة، والحث على ابتغاء الولد[4]، وقوله ﷺ: ((من يضمن مابين لحييه ومابين رجليه أضمن له الجنة))[5]، إلى غير ذلك من الحديث، وهو امتداد لحسن خلقه قولا وفعلا، وهو أيضا مما يصدق قول عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: ((لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا))[6]، الفاحش هو المتكلم بالقبيح، والمتفحش هو المتكلف لذلك، أي لم يكن له الفحش خلقا ولا مكتسبا، قاله ابن حجر[7].

ومن ذلك عنايته ﷺ بإصلاح المنطق وتقويم اللسان، كقوله ﷺ: ((لا يقولن أحدكم: خبُثت نفسي، ولكن ليقل: لَقِست نفسي))[8]، ومعناهما واحد، أي غَثَت نفسي، وساء

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٦٠٢٥) وابن ماجه (٦٠٨) عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٩٢)، وأصله في مسلم (٣٤٩).

(٢) رواه البخاري (٢١٠٢) ومسلم (٢٧٤٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (١٩٩١) ومسلم (٧١٥) عن جابر ﷺ.

(٤) عمدة القاري (٤٢٦/١٦).

(٥) رواه البخاري (٦١٠٩) عن سهل بن سعد ﷺ.

(٦) رواه البخاري (٣٣٦٦) ومسلم (٦١٧٧).

(٧) فتح الباري (٦٦٥/٦).

(٨) رواه البخاري (٥٨٢٥) ومسلم (٢٢٥٠) عن عائشة رضي الله عنها.

خلقها، فكره لهم لفظ الخبث لما فيه من القبح والشناعة، وأرشدهم إلى استعمال الحسن، وهجران القبيح، وإبدال اللفظ المكروه بأحسن منه[1]، وغيَّر ﷺ اسم حزَن إلى سهل[2]، كما غير اسم عاصية إلى جميلة[3]، لما للاسم من تأثير على المسمى، وتفاؤلا بالاسم الحسن، وكان ﷺ يعجبه الفأل الحسن[4].

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام للخطيب الذي قال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: ((بئس الخطيب أنت! قل: ومن يعص الله ورسوله))[5]، فأنكر عليه تشريكه في الضمير المقتضي للتسوية، وأمره بالعطف، تعظيما لله تعالى، وقيل: لأنه أوجز في مقام الإطناب، والله أعلم[6]، وأحاديث هذا الباب كثيرة[7].

ومن أهم ما يلفت النظر ويستوقف الباحث مبتكرات الحديث[8]، وهي الأساليب الجديدة التي لم يسمع بها في كلام أحد قبل النبي ﷺ، وهي جديرة بالدرس والتحليل، وقد عني بجمعها جماعة منهم الجاحظ في بيانه، حيث صدرها بقوله: "وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربي، ولم يشاركه فيه أعجمي، ولم يدع لأحد، ولا ادعاه أحد، مما صار مستعملا ومثلا سائرا"[9]، وابن دريد في المجتنى، قال: "باب ماسمع من النبي ﷺ ولم يسمع من غيره من قبل"[10]، والقاضي عياض في الشفا، وقال: "وقد جمعتُ من كلماته التي لم يسبق إليها، ولا قدر أحد أن يفرغ في قالبه عليها"[11]،

---

١) زاد المعاد (٢/٣٥٦).

(٢) رواه البخاري (٥٨٤٠) عن المسيب بن حزن رضي الله عنهما.

(٣) رواه مسلم (٢١٣٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/٣٤٧).

(٥) رواه مسلم (٨٧٠) من حديث عدي بن حاتم ﷺ.

(٦) نيل الأوطار (٦/٣٧٠).

(٧) من أوسع من جمعها الشيخ بكر أبو زيد في معجم المناهي اللفظية.

(٨) أطلقتُ عليها هذا المصطلح مشايعة لابن عاشور في استعماله مصطلح مبتكرات القرآن، ينظر: تفسير التحرير والتنوير (١/١٢٠).

(٩) البيان والتبيين (٢/١٥).

(١٠) المجتنى (٨).

(١١) الشفا (١/١٠٤).

وغيرهم.

ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: ((حمي الوطيس))[1]، وقوله ﷺ: ((لايلدغ المؤمن من جحر مرتين))[2]، وفي المسلم والكافر: ((لا تراءى ناراهما))[3]، ومن العلماء وشراح الحديث من ينبه إلى هذه المبتكرات، فيضيف إلى ما ذكره السابقون، كابن الأثير الذي قال عند قوله ﷺ: ((وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو على مناخرهم، إلا حصائدُ ألسنتهم))[4]، قال: "شبه الألسنة وما تمضي فيه من الأحاديث التي يؤاخذ بها، بالمناجل التي تحصد النبات من الأرض، وهذا تشبيه بليغ عجيب لم يسمع إلا من النبي ﷺ"[5]، وكابن عاشور، الذي يقول عند حديث أبي موسى ﷺ: ((قطعتم ظهر الرجل))[6]: "هذا من بليغ الكلام النبوي، ولم أعرف له سابقا في كلام العرب، فهو مما انفرد به الرسول ﷺ، وهو تمثيل بديع"[7]، ثم شرع في شرحه وتحليله. وإن هذه المبتكرات في الحديث بحاجة إلى درس وتحليل بعد جمعها، وإثبات الصحيح منها.

ومما يستوقف المتأمل أن الرسول ﷺ على كونه تبوأ من الفصاحة ذروتها، واقتعد من البلاغة مكان صهوتها. إلا أنه لا يفخر بذلك، ولا يفاخر، ولا يطاول به الخطباء، أو يتحدى به الشعراء، كما هي العادة عند البلغاء المتصرفين في فنون القول، كيف وقد أوتي ﷺ ما هو أعظم من ذلك فلم يفخر به، وهو السيادة الإنسانية المطلقة، قال عليه الصلاة والسلام: ((أنا سيد ولد آدم، ولا فخر))[8]، فأما قوله عليه الصلاة والسلام: ((أعطيت جوامع

---

(١) رواه مسلم (١٧٧٥) عن العباس بن عبد المطلب ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٢) ومسلم (٢٩٩٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) رواه أبو داود (٢٦٤٥) والترمذي (١٦٠٤) عن جرير ﷺ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٣٠٤). وينظر: غريب الحديث للخطابي (٦٤).

(٤) رواه الإمام أحمد (٢٢٠١٦) و (٢٢٠٦٣) والترمذي (٢٦١٦) وقال: "حسن صحيح"، وابن ماجه (٢٩٧٢) عن معاذ بن جبل ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢١٠) وصحيح ابن ماجه (٣٢٠٩).

(٥) المثل السائر (٢٤١) (طبعة بولاق سنة ١٢٨٢هـ) وقد سقط هذا النص من النسخة التي اعتمدتها في البحث، من قوله: "وهذا تشبيه" إلخ.

(٦) رواه البخاري (٢٥٢٠) ومسلم (٣٠٠١).

(٧) النظر الفسيح (٣٠٨).

(٨) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٢٤٢ و ٦٤٧٥) عن واثلة بن الأصقع ﷺ، قال محققه: "إسناده صحيح على شرط الصحيح"، وجاء عند مسلم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة ﷺ: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)).

الكلم))[1] فهو من قبيل فائدة الخبر، كما يقول البلاغيون، أي مجرد الإخبار، وليس الغرض الفخر قطعا.

عناية البلاغيين بالحديث النبوي:

لقد كان تأثير النبي ﷺ في اللغة العربية بينا لا يجهل، وذلك بما أمدها من هذه الثروة الحديثية الضخمة، المشتملة على أفصح الألفاظ، وأبلغ الأساليب، وقد كان الحديث النبوي رافدا مهما في إثبات لغة العرب، ولقد جعل ابن منظور كتاب النهاية في غريب الحديث لابن الأثير أحد المصادر الخمسة التي اعتمدها في إثبات اللغة في سفره العظيم لسان العرب، ويمكن إجمال أثر الحديث النبوي في اللغة في جهات ثلاث:

الأولى: أنه كان أحد المصادر الكبرى في تدوين اللغة، كما يرى في كل المعجمات، حيث يستدل اللغويين بالحديث، كما يستدلون بالقرآن وبكلام العرب الخلص شعره ونثره.

الثانية: أن الحديث كان أحد عوامل تطور اللغة وثرائها، وذلك بإكساب الألفاظ دلالات جديدة أوسع من دلالاتها الأصلية، وباشتمال الحديث على ألفاظ مبتكرة وجمل لم تسمع من قبل، والعلماء ينبهون على ذلك في محله[2].

الثالثة: أن البحث في لغة الحديث وغريبه بخاصة صار ميدانا خصبا من ميادين البحث اللغوي لعلماء العربية وغيرهم، ووضع علماء مصطلح الحديث من ضمن علومه علم الغريب، وقد أثمرت جهود العلماء في دراسة غريب الحديث ثمرات عظيمة، ومن ذلك ظهور المصنفات الكثيرة التي تحمل اسم غريب الحديث، لأئمة أعلام منهم ابن قتيبة وإبراهيم الحربي والخطابي وابن الأثير، وكلها مطبوعة، وقد عالجوا فيها قضايا نحوية ولغوية وصرفية، ومسائل أخرى من علم أصول اللغة.

وأما البلاغيون فقد عنوا قديما وحديثا بالحديث النبوي واحتفوا به، وما فتئوا يوصون الكتاب والشعراء وسائر البلغاء بالاستكثار من حفظ الأحاديث إلى جانب حفظ القرآن لتقوى أساليبهم ولينفقوا منها عن سعة، وجعلوا ذلك من أسباب الإبداع في

---

(١) متفق عليه وهذا لفظ مسلم، وتقدم تخريجه.

(٢) نقل ابن الأثير عن ابن الأنباري قوله: "وكذلك أشياء كثيرة لم تسمع إلا في الحديث" النهاية (٥/٢٥٨) وينظر أيضا: (٢/٣٤٠)

الكتابة، كما جعلوه في مقدم ما يحتاج إليه من الآلات في صناعة الإنشاء، قال شهاب الدين الحلبي: "أول ما يبدأ به من ذلك ـ أي طالب صناعة الكتابة والإنشاء ـ حفظ كتاب الله وإدامة قراءته، ويتلو ذلك الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية صلوات الله على قائلها وسلامه، وخصوصا في السير والمغازي والأحكام، والنظر في معانيها وغريبها وفصيحها"[1].

وقال ابن الأثير الحلبي: "وليس له وصول ـ أي المنشئ والبليغ ـ إلى بلوغ مقاصده من مخاطبة كل أحد بما يليق به والتمكن في صناعته إلا إذا استعد لذلك بتحصيل أصول يرجع إليها، فمنها: أن يحفظ كتاب الله تعالى، ومنها أن يحفظ جملة من الأحاديث النبوية، لفائدتين، إحداهما تبركا بالحديث، والثانية: السلوك به مسلك كتاب الله العزيز باستعماله في مطاوي كلامه مكان الاستشهاد به"[2].

وقال الطوفي (ت ٧١٦): "النوع السادس والسابع: حفظ الكتاب وجملة صالحة من السنة ليستعمل ذلك في غضون كلامه تضمينا وتلميحا واستشهادا، كما فعل ابن نباته في خطبه، فإن لذلك رونقا عظيما على الكلام، و يتسلط الإنسان بالنظر في عجائب ما اشتملا عليه من الفصاحة على استخراج فوائد جمة"[3].

وحين ذكر ضياء الدين ابن الأثير حاجة البليغ والبلاغي إلى حفظ الحديث النبوي واستظهاره ذكر تجربة له عن نفسه، وكان من الكتاب المترسلين، وقد ولي الوزارة والكتابة للملك الأفضل ابن صلاح الدين، ثم صار كاتب الإنشاء لصاحب الموصل محمود بن عز الدين مسعود[4]، يقول ابن الأثير: "وكنت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر، كلها تدخل في الاستعمال، وما زلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة، حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمس مئة مرة، وصار محفوظا لا يشذ عني منه شيء، وهذا الذي

(١) حسن التوسل (٧٨.٧٢)، ونقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى (٢٠١/١).
(٢) جوهر الكنز (٢٩).
(٣) الإكسير (٥٦)، وهو تلخيص وتهذيب لكلام ابن الأثير في المثل السائر (٤٠/١).
(٤) الأعلام (١٢٥/٧).

أوردته ههنا في حل معاني الأخبار هو من هناك "[1].

ومن دلائل حفاوة البلاغيين بالحديث أنهم يستشهدون به على إثبات القواعد البلاغية في علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع، كما يرى ذلك في جمهرة كتب هذا الفن وأصولها، كالصناعتين للعسكري (ت ٣٩٥هـ) والدلائل والأسرار لعبد القاهر (ت ٤٧٤هـ) والإيضاح للخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) و التبيان للطيبي (ت ٧٤٣) وغيرها، ويبلغ الاستشهاد بالحديث قمته عند ابن الأثير (ت ٦٣٨هـ) في المثل السائر، والعلوي (ت ٧٤٩هـ) في الطراز، حيث استشهدا بعشرات الأحاديث، وكان منهج العلوي أنه يورد على كل قاعدة شواهد من القرآن ثم من الحديث ثم من كلام العرب نثره وشعره، وإن كان يؤخذ عليهم شيء فهو تساهل كثير منهم في إيرادهم الأحاديث الضعيفة، وذلك ظاهر بجلاء عند العلوي، ولعل سبب ذلك – والله أعلم – أنه ليس من المشتغلين بعلم الحديث[2].

وكذا صنع كثير ممن كتب في البلاغة اليوم في الاستشهاد بالحديث، وأجل من رأيت في ذلك الدكتور فضل حسن عباس وفقه الله، في كتابه البلاغة فنونها وأفنانها، ومنهجه قريب من العلوي صاحب الطراز.

ومهما يكن فإن موقف البلاغيين بعامة من الحديث خير من النحويين فإن كثيرا من هؤلاء لا يستشهدون بالحديث عند إثبات الأحكام النحوية وتدوين القواعد العربية، أو تشددوا في قبوله، لزعمهم أن الحديث ليس عين كلام النبي ﷺ، وإنما هو مروي بالمعنى، وأن الرواة كثير منهم أعاجم، فيحتمل أنهم تصرفوا في النقل.

وهذا الكلام لايسلم على إطلاقه، بل لامهم عليه جماعة من علماء الإسلام الكبار، ومنهم أبو إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) في شرحه لألفية ابن مالك، حيث ذكر أن النحاة يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم، وبأشعارهم التي فيها ذكر الخنا والفحش، ويتركون الأحاديث الصحيحة لأنها تنقل بالمعنى[3]، ونقول أيضا: إن

---

(١) المثل السائر (١٥٠/١)

(٢) ينظر: مقدمة الطراز (٥٠/١) للباحث عبد المحسن العسكر رسالة دكتوراه غير منشورة في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام.

(٣) المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (٤٠٢/٣).

الأشعار يقع فيها التغيير والاختلاف، وكم من بيت مستشهد به تعددت رواياته! وكثير من رواة الأشعار أصولهم أعجمية، هذا، وقد استشهد بالحديث طائفة من أكابر النحاة بتوسع واعتمدوه، كجمال الدين ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) وابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) والدماميني شارح المغني والتسهيل (ت ٨٢٧ هـ)، وقد وقف هذا الأخير في وجه أبي حيان الذي أنكر على ابن مالك كثرة استشهاده بالحديث، ويعجبني أن أسوق كلامه على طوله لما فيه من الإفادة والتحقيق: قال الدماميني رحمه الله: "قد أكثر المصنف ـ أي ابن مالك ـ من الاستدلال بالأحاديث النبوية على إثبات الأحكام النحوية، وشنع أبو حيان عليه[1]، وقال: إن ما استند إليه من ذلك لا يتم له، لتطرق احتمال الرواية بالمعنى إلى ما يستدل به من تلك الأحاديث، فلا يوثق بأن ذلك المحتج به لفظُه عليه الصلاة والسلام حتى تقوم به الحجة، وقد أجريت ذلك لبعض شيوخنا، فصوَّب رأي ابن مالك فيما فعله من ذلك، بناء على أن اليقين ليس بمطلوب في هذا الباب، وإنما المطلوب غلبة الظن الذي هو مناط الأحكام الشرعية، وكذا ما يتوقف عليه من نقل مفردات الألفاظ وقوانين الإعراب، فالظن في ذلك كله كاف، ولا يخفى أنه يغلب على الظن أن ذلك المنقول المحتج به لم يبدل، لأن الأصل عدم التبديل، لاسيما والتشديد في الضبط والتحري في نقل الأحاديث شائع بين النقلة والمحدثين، ومن يقول منهم بجواز النقل بالمعنى إنما هو عنده بمعنى التجويز العقلي، الذي لا ينافي وقوع نقيضيه[2]، فلذلك تراهم يتحرون في الضبط، ويتشددون، مع قولهم بجواز النقل بالمعنى، فيغلب على الظن من هذا كله أنها لم تبدل، ويكون احتمال التبديل فيها مرجوحا فيلغى، ولا يقدح في صحة الاستدلال بها، ثم إن الخلاف في جواز النقل بالمعنى إنما هو فيما لم يدون في الكتب، وأما ما دوّن

---

(١) في شرحه للتسهيل المسمى التذييل والتكميل (مخطوط) (ج ٥ ورقة ١٦٩/أ).

(٢) جاء عند البغدادي ـ الذي نقل النص ـ في الخزانة (١٤/١) "لا ينافي وقوع نقيضه"، ولعل الصواب: "ينافي وقوع نقيضيه"، وهما الوجوب والامتناع، فالجائز هو الممكن وجوده وعدمه، وما كان كذلك فلا يكون واجبا ولا ممتنعا، هذا على تقدير أن الضمير المجرور يعود إلى التجويز العقلي. وإن قُدِّر أن الضمير يعود إلى جواز. أي إمكان ـ الرواية بالمعنى، فنقيضه جواز الرواية باللفظ، وهذا الاحتمال هو اللائق بالمقام، ويكون الصواب (نقيضه) بالإفراد، كما جاء عند البغدادي، فالقول بجواز الرواية بالمعنى لا ينافي وقوع نقيض الرواية بالمعنى.اهـ. قال ذلك كله شيخنا عبد الرحمن البراك حفظه الله.

وجعل في بطون الكتب، فلا يجوز تبديل ألفاظه من غير خلاف بينهم في ذلك"[1].

ثم أورد الدماميني قول ابن الصلاح في مقدمته ـ بعد أن ذكر اختلافهم في نقل الحديث بالمعنى ـ: "إن هذا الخلاف لا نراه جاريا، ولا أجراه الناس فيما نعلم فيما تضمنته بطون الكتب، فليس لأحد أن يغير لفظ شيء من كتاب مصنف، ويثبت فيه بدله لفظا آخر بمعناه، بل الرواية بالمعنى رخَّص فيها من رخص، لما كان عليهم في ضبط الألفاظ والجمود عليها من الحرج والنصب، وذلك غير موجود فيما اشتملت عليه بطون الأوراق والكتب"[2].

ثم قال الدماميني: "وتدوين الأحاديث والأخبار، بل وكثير [من] المرويات وقع في الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية، حين كان كلام أولئك المبدلين ـ على تقدير تبديلهم ـ يسوغ الاحتجاج به، وغايته يومئذ تبديل لفظ يصح الاحتجاج به بلفظ يصح الاحتجاج به، فلا فرق بين الجميع في صحة الاستدلال، ثم دوّن ذلك المبدل على تقدير التبديل، ومنع من تغييره ونقله بالمعنى، كما قال ابن الصلاح، فبقي حجة في بابه صحيحة، ولا يضر توهم ذلك الاحتمال السابق في شيء من استدلالهم المتأخر، والله أعلم بالصواب"[3].

إن كلام الدماميني هذا فيه تحرير وإنصاف، ولذا تناقله من جاء بعده ممن عرض للمسألة، وخلصوا إلى أن الحديث إذا ثبت عن النبي ﷺ بنقل الأثبات، باللفظ أو بالمعنى، برواية العرب أو العجم، فإنه يجب الاحتجاج به، وسلك هذا المسلك كثير من المتأخرين، وذكر ابن الطيب الفاسي أن هذه هي طريقة ابن مالك، وأنه قد وافقه عليها جل المتأخرين أو كلهم[4].

ومما يجدر قوله أن رواية الحديث بالمعنى وإن كانت جائزة بشروطها المعروفة عند علماء السنة[5]، إلا أن هناك جمهرة كبيرة جدا من الأحاديث نقطع يقينا أنها نقلت إلينا بألفاظها التي صدرت من فمه الشريف ﷺ دون تغيير، فهذه لا ينبغي أن تكون موضع

---

(١) تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد (٤/ ٢٤١).

(٢) مقدمة ابن الصلاح (٣٩٦).

(٣) تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد (٤/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٤) فيض نشر الانشراح (١/ ٥٢٤)، وينظر: ارتكاز الفكر النحوي على الحديث والأثر (٨٤).

(٥) مقدمة ابن الصلاح (٣٩٦)، تدريب الراوي (٢/ ٩٨).

خلاف، بل يجب الاحتجاج بها، لأنه قد عرف اعتناء ناقلها بلفظها لمقصود خاص، وقد نبه إليها الشاطبي في إشارة ذكية منه[1]، ولخصها الشيخ محمد الخضر حسين في صور ست[2]، ويكن صوغها في أنحاء أربع، هاأنا أذكرها مستدلا لها، وأشفعها بالشواهد، فإن الشيخ رحمه الله ساقها غفلا من الاستدلال والاستشهاد:

الأول: ما يروى من الحديث بقصد الاستدلال على كمال فصاحته ﷺ، وبلوغه أعلى مايمكن لبشر أن يبلغه من حكمة البيان، فإن من المعلوم أن الرواة سينقلون ألفاظ الحديث كما هي لئلا تفوت بلاغته، كقوله ﷺ: ((حمي الوطيس))[3]، وقوله عليه الصلاة والسلام: ((الظلم ظلمات يوم القيامة))[4] ، ومن هذا القبيل الأمثال النبوية، والكلمات الحِكْمية السائرة، كقوله ﷺ: ((أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب))[5]، وقوله ﷺ: ((الناس كإبل مائة، لا يجد الرجل فيها راحلة))[6]

الثاني: الأحاديث التي يتعبد بألفاظها، كأحاديث الدعاء والأذكار، وأدعية الصلاة، قال ابن مسعود: ((علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد كفي بين كفيه كما يعلمني السورة من القرآن))[7]، ولما علم النبي عليه الصلاة والسلام البراء رضي الله عنه دعاء النوم وفيه: ((آمنت بنبيك الذي أرسلت)) قال البراء حين جعل يعيدها ليستذكرها: ورسولك، فقال له النبي ﷺ: ((لا، ونبيك الذي أرسلت))[8]. فهذا النوع لا يقع فيه تغيير أبدا، لأنه مقصود متعبد بلفظه[9].

الثالث: الأحاديث المتواترة، وهي التي رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة، وروها عنهم جماعة من التابعين، وهكذا من بعدهم عنهم، فتعددُ طرق

---

(١) المقاصد الشافية (٣/ ٤٠٣).

(٢) دراسات في العربية وتاريخها (١٧٧).

(٣) تقدم تخريجه، وهو في صحيح مسلم.

(٤) رواه البخاري (٢٣١٥) ومسلم (٢٥٧٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) رواه البخاري (٢٧٠٩) ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب ﷺ.

(٦) رواه مسلم (٢٥٤٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) رواه البخاري (٨٠٠) ومسلم (٤٠٢) واللفظ له.

(٨) رواه البخاري (٢٤٤) ومسلم (٢٧١٠).

(٩) قال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ١٥٥): "الأقوال المنصوصة إذا تُعبد بلفظها لا يجوز تغييرها ولو وافق المعنى".

الرواية مع اتحاد ألفاظ الحديث يفيد الجزم بأن هذا المروي هو كلام النبي ﷺ نفسه، كحديث ((من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار))[1]، فقد رواه عن النبي ﷺ واحد وستون رجلا من الصحابة[2]، ورواه عنهم خلائق. وللكتاني (ت ١٣٤٥هـ) نظم المتناثر من الحديث المتواتر، وهو مطبوع.

الرابع: الأحاديث التي جاءت مسلسلة بالرواة من العرب الفصحاء كأحاديث المدنيين والمكيين واليمانيين، وهناك طرق رواتها مشهورون بالفصاحة، ومتانة الدين، وشدة التحري والضبط، كما في طريق سهيل بن صالح عن همام بن منبه عن أبي هريرة، وطريق مالك عن سالم عن ابن عمر، وكثيرٌ من أحاديث الموطأ على هذه الجادة، ومالك رحمه الله لم يخرج من المدينة للرواية، فشيوخه مدنيون، و فصاحة الرواة وكونهم من العرب هو مما يصحح به الحديث عند النقاد وعلماء العلل، وتعتبر بذلك ألفاظه، قال أبو عبد الله الحاكم (صاحب المستدرك) عن حديث ساقه: "رواة هذا الحديث كلهم عربيون غير أبي حازم، فإنه سلمة بن دينار، ودينار عبدٌ"[3]، وقال ابن عبد البر حافظ المغرب في حديث: "رواته - أي الحديث المذكور - عرب فصحاء"[4]، قال ذلك ردا على من شك في لفظة في الحديث.

فهذه الأنواع الأربعة يجب الاحتجاج بها مطلقا، وأن تجعل في إثبات القواعد الكلية كالقرآن[5]، ولا ريب أنه يندرج في هذه الأنواع جمهرة كبيرة من الحديث، تمنح الثقة بالجملة والجمل في الحديث، وتفرض على النحوي الأخذ به، وتعزز جناب القائلين بوجوب الاستشهاد بالأحاديث.

وإنما أطلت الوقوف في هذه المسألة لما لها من الأهمية البالغة في البيان النبوي، ورفع الارتياب في ألفاظه.

وإلى هنا ينتهي القول فيما أردت، وأسأل الله أن يغفر لي ما فيه قصرت، والحمد لله كفاء نعمته، والصلاة والسلام على نبيه المبعوث بهداه ورحمته.

---

(١) رواه البخاري (١٠٧، ١٢٢٩) عن الزبير والمغيرة رضي الله عنهما، ومسلم (٣٠٠٤) عن أبي سعيد ﷺ، وينظر: منهاج السنة (٣٨٦/٧).

(٢) قال ذلك ابن الجوزي في مقدمة الموضوعات (٦٥/١)، وينظر: مقدمة ابن الصلاح (٤٥٤).

(٣) معرفة علوم الحديث (٥٥٤).

(٤) الاستذكار (٣٨٩/٤).

(٥) فيض نشر الانشراح (٤٥٦/١).

مراجع معالم البيان في الحديث النبوي[1]:

١- **إحكام صنعة الكلام**: أبو القاسم الكلاعي، تحقيق محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٢- **الإحكام في أصول الأحكام**: ابن حزم الظاهري، تصحيح أحمد شاكر، مطبعة مصر، مصر.

٣- **الأدب الكبير والأدب الصغير**: ابن المقفع، دار صادر، بيروت.

٤- **ارتكاز الفكر النحوي على الحديث والأثر في كتاب سيبويه**: د.محمود فجال، مطابع شرقان الغامدي، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

٥- **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**: الشوكاني، تحقيق محمد صبحي حلاق، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٦- **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**: الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٧- **أساس البلاغة**: الزمخشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الثالثة.

٨- **إشارات الإعجازفي مظان الإيجاز**: بديع الزمان سعيد النّورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، نسخة حاسوبية، المكتبة الشاملة (٣).

٩- **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار**: ابن عبد البر، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار قتيبة، دمشق، ودار الوعي، حلب، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٠- **أصول الحديث علومه مصطلحه**: محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ.

١١- **أصول الفقه**: محمد أبوزهرة، دار المعارف، مصر.

١٢- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**: مصطفى صادق الرافعي، مطبعة المقتطف والمقطم، مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٤٦هـ.

١٣- **الإعجاز والإيجاز**: الثعالبي، تحقيق د.محمد التونجي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

---

١) ما ذكر دون تاريخ فهو هكذا في الأصل.

١٤- **إعلام الموقعين عن رب العالمين**: ابن القيم، تحقيق مشهور آل سلمان، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
١٥- **الأعلام**: الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.
١٦- **الاقتباس أنواعه وأحكامه**: د.عبد المحسن العسكر، دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
١٧- **اقتضاء الصراط المستقيم**: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق ناصر العقل، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية،١٤١١هـ.
١٨- **الإكسير في علم التفسير**: الطوفي، تحقيق د.عبدالقادر حسين، المطبعة النموذجية، مصر.
١٩- **إكمال المعلم بفوائد مسلم**: القاضي عياض، تحقيق د.يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٢٠- **الإيضاح في علوم البلاغة**: القزويني، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٠٥هـ.
٢١- **البداية والنهاية**: ابن كثير، تحقيق د.عبد الله التركي، هجر للطباعة والنشر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٢٢- **بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم**: علي العماري، دار الأنصار، القاهرة.
٢٣- **البيان والتبيين**: الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٢٤- **تاج العروس**: الزبيدي، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٦هـ.
٢٥- **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، الجلال السيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة.
٢٦- **التذييل والتكميل في شرح التسهيل**: أبو حيان، مخطوط في دار الكتب المصرية برقم (٦٢ نحو) (ومنه مصورة في مكتبة جامعة الإمام (برقم ف ٧٣٢٤ و٧٣٢٥و ٧٣٢٦ و٧٣٢٧).
٢٧- **الترغيب والترهيب**: المنذري، ضبطه مصطفى محمد عمارة، دار الفكر، لبنان، ١٤٠١هـ.
٢٨- **تعاشيب**: عبدالله كنون(دون معلومات).
٢٩- **تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد**: الدماميني، تحقيق د.محمد المفدى، الطبعة الأولى،

١٤٠٩هـ.
٣٠-**تفسير التحرير والتنوير**: ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
٣١- **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير، ضبطه حسين زهران، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.
٣٢-**التفسير الكبير**: فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت.
٣٣-**تفسير المنار**: محمد رشيد رضا، تصوير دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.
٣٤-**التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: ابن عبد البر، تحقيق مصطفى العلوي وجماعة، نشر وزارة الأوقاف المغربية، بدءا من سنة ١٣٨٧هـ.
٣٥- **تهذيب اللغة**: الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون وجماعة، المؤسسة المصرية العامة، ١٣٨٠هـ.
٣٦- **جامع الترمذي**: تحقيق أحمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٣٩٦هـ.
٣٧- **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي، تحقيق د.عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
٣٨- **الجامع لشعب الإيمان**: البيهقي، تحقيق عبد العلي حامد، إدارة الشؤون الإسلامية، ١٤٢٩هـ، قطر.
٣٩-**الجرح والتعديل**: ابن أبي حاتم، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٠-**الجليس الصالح الكافي**:المعافى الجريري، تحقيق د. أحسان عباس، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣هـ.
٤١- **جوهر الكنز**: ابن الأثير الحلبي، تحقيق محمد زغلول، منشأة المعارف، الإسكندرية.
٤٢-**جوهر الكنز**: ابن الأثير، تحقيق د.محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية.
٤٣-**حاشية السندي على سنن ابن ماجه**: المطبعة العلمية، الطبعة الأولى، مصر ١٣١٣هـ.
٤٤-**حاشية السندي على مسند الإمام أحمد**: اعتنى به نور الدين طالب، إصدار وزارة الأوقاف بقطر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
٤٥-**حسن التوسل إلى صناعة الترسل**: شهاب الدين الحلبي، تحقيق د.أكرم عثمان يوسف، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٠م.
٤٦-**دراسات في العربية وتاريخها**: محمد الخضر حسين، المكتب الإسلامي، دمشق،

الطبعة الثانية، ١٤٨٠هـ.

٤٧- **ديوان المتنبي (مع شرحه التبيان المنسوب للعكبري)**[1]: تصحيح مصطفى الزرقا وزميليه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٥٥هـ.

٤٨- **الرسالة**: الإمام الشافعي: تحقيق أحمد شاكر، دار التراث، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

٤٩-**رعاية حال المخاطب في الصحيحين (رسالة دكتوراه غير منشورة)**: يوسف العليوي، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام، العام الجامعي، ١٤٢٨، ١٤٢٩هـ.

٥٠-**الروض الأنف في شرح السيرة**: السهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٠هـ.

٥١-**زاد المعاد في هدي خير العباد**: ابن القيم، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة عشرة، ١٤٠٧هـ.

٥٢-**زهر الآداب وثمر الآداب**: الحصري، تحقيق إبراهيم البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، الطبعة الثانية.

٥٣- **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**: الصالحي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وزميله، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٤هـ.

٥٤-**سلسلة الأحاديث الصحيحة**: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٥٥- **السنة قبل التدوين**: د.محمد عجاج الخطيب، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

٥٦- **سنن ابن ماجه**: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

٥٧- **سنن أبي داود**: تعليق عزت الدعاس وزميله، دار الحديث، حمص، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ.

٥٨- **سنن الدارقطني**: تصحيح عبدالله هاشم، دار المحاسن، القاهرة.

٥٩- **سنن النسائي**: اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب،

(١) رجح الدكتور مصطفى جواد أن هذا الشرح لأبي الحسن عفيف الدين بن عدلان. ينظر: مجلة مجمع اللغة بدمشق (م٢٢، ج٢/١).

الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
٦٠-**السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة**: د.مهدي رزق الله أحمد، دار إمام الدعوة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.
٦١-**السيرة النبوية**: ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وزميله، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ.
٦٢-**شرح أحاديث من صحيح البخاري**: د.محمد أبوموسى، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٦٣-**شرح أصول اعتقاد أهل السنة**: اللالكائي، تحقيق أحمد الغامدي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ.
٦٤-**شرح الأربعين النووية**: الشيخ محمد بن عثيمين. دار الثريا للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٢٤هـ.
٦٥-**شرح صحيح البخاري**:ابن بطال، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٦٦-شرح الموطأ: الزرقاني، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣١٠هـ.
٦٧- **الشعر والشعراء**: ابن قتيبة، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، مصر.
٦٨- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ**: القاضي عياض، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر.
٦٩-صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.
٧٠-**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: القلقشندي، مصورة الطبعة الأميرية، مصر.
٧١-**صحيح ابن حبان**: تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٧٢-**صحيح الترغيب والترهيب**: الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
٧٣- **صحيح سنن ابن ماجه**: الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
٧٤- **صحيح سنن أبي داود**: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٧٥- **صحيح سنن الترمذي**: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٧٦- **ضوء الصباح على ترجيز المصباح (مخطوط)**: محمد بن عبد الرحمن المراكشي الضرير، موجود بمكتبة الأسكوريال برقم (٢١٩) وعنه مصورة في مركز جمعة الماجد برقم (٥٠٦).

٧٧- **ضوابط الترجيح عند وقوع التعارض لدى الأصوليين**: بنيونس الولي، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٧٨- **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**: العلوي، مطبعة المقتطف، مصر، ١٣٣٢هـ[1].

٧٩- **الطراز**: العلوي، تحقيق عبد المحسن العسكر (رسالة دكتوراه غير منشورة)،كلية اللغة العربية، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٨٠-**طرح التثريب في شرح التقريب**: الحافظ العراقي، تصوير مكتبة نزار الباز، مكة.

٨١-**عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**: ابن العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٨٢-**عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**: السبكي، تحقيق د. خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٨٣- **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**: العيني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ.

٨٤- **عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم**: العقاد، المكتبة العصرية، لبنان.

٨٥- **الفائق في غريب الحديث**: الزمخشري، تحقيق علي البجاوي وزميله، مطبعة البابي الحلبي، مصر.

٨٦- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: ابن حجر، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، مصر، الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٨٧- **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث**: السخاوي، تحقيق الشيخ عبد الكريم الخضير

(١) هذه هي الطبعة المعتمدة في البحث، وإذا أردت النسخة الأخرى نصصت عليها.

وزميله، مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٨٨- **فتح ذي الجلال والإكرام**: ابن عثيمين، مدار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

٨٩- **محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل**: محمد أحمد جاد المولى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٥٦هـ.

٩٠-الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين النووية: إبراهيم الشبرخيتي المالكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.

٩١- الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم الظاهري، تصوير دار الفكر، بيروت.

٩٢-**فقه اللغة**: أحمد بن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

٩٣-**فقه بيان النبوة منهجا وحركة**: د.محمد توفيق سعد، مطبعة الأمانة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٩٤-**الفقيه والفقيه**: الخطيب البغدادي، تحقيق عادل العزازي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٩٥- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**: المناوي، دار إحياء السنة النبوية، مصر.

٩٦-**فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح**: ابن الطيب الفاسي، تحقيق محمود فجال، دار البحوث والدراسات الإسلامية، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٩٧- **الكاشف عن حقائق السنن**: الطيبي، تحقيق المفتي عبد الغفار وزملائه، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، باكستان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٩٨- **كتاب الصناعتين**: أبوهلال العسكري، تحقيق علي البجاوي وزميله، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، مصر.

٩٩-الكفاية في علم الرواية: الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٠٠- **المثل السائر**: ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وزميله، دار نهضة مصر، مصر.

١٠١- **مجالس ثعلب**: شرح وتحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة.

١٠٢- **المجتبى**: ابن دريد، تحقيق محمد أحمد الدالي، الجفان والجابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١٠٣- **المجتنى**: ابن دريد، تحقيق د.محمد أحمد الدالي، الجفان والجابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١٠٤- **مجمع الزوائد**: الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ
١٠٥- **مجموع فتاوى الشيخ عبد الرحمن البراك (مخطوط)**: مصورة بحوزة الباحث.
١٠٦- **محمد رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم**: محمد الخضر حسين، إعداد علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب.
١٠٧- **مختصر الشمائل المحمدية**: ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٣هـ.
١٠٨- **مختصر الصواعق المرسلة**: الموصلي، تحقيق الحسن العلوي، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
١٠٩- **مراجعات في أصول الدرس البلاغي**: د.محمد أبوموسى، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
١١٠- **المراسيل**: أبوداود، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
١١١- **مرقاة المفاتيح شرح مشاة المصابيح**: علي القاري، تصوير دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
١١٢- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، تصوير دار التراث، مصر.
١١٣- **المستدرك على الصحيحين**: الحاكم، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد.
١١٤- **مسند الإمام أحمد**: طبع بإشراف الدكتور عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
١١٥- **المصنف في الأحاديث والآثار**: ابن أبي شيبة، تحقيق عبد الهادي الأفغاني، الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
١١٦- **معالم السنن (شرح سنن أبي داود)**: الخطابي، (بهامش سنن أبي داود).

١١٧- **معرفة علوم الحديث**: الحاكم، تحقيق أحمد السلوم، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١١٨- **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**: أبو العباس القرطبي، تحقيق محيي الدين مستو وزملائه، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١١٩- **المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية**: أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق د.عياد الثبيتي وزملائه، نشر جامعة أم القرى، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

١٢٠- **المقترح في أجوبة بعض أسئلة المصطلح**: مقبل الوادعي، مكتبة دار القدس، اليمن، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

١٢١- **مقدمة ابن الصلاح**: تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر.

١٢٢- **من روائع الأدب النبوي**: كامل سلامة الدقس، دار الشروق، جدة، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ.

١٢٣- **مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا**: السيوطي، تحقيق سمير القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٢٤- **منهاج السنة**: ابن تيمية، تحقيق د.محمد رشاد سالم، جامعة الإمام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٢٥- **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**: النووي، دار الريان، مصر.

١٢٦- **المنهاج في شعب الإيمان**: الحليمي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.

١٢٧- **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، القسطلاني، تحقيق أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٢٨- **الموضوعات**: ابن الجوزي، تحقيق عبد الرحمن عثمان، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٢٩- **الموطأ**: الإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

١٣٠- **نثر الورود شرح مراقي السعود**: محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق علي العمران، دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٣١- **النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح**: محمد الطاهر بن عاشور، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٣٩٩هـ.

١٣٢- **النهاية في غريب الحديث والأثر**: ابن الأثير الجزري، تحقيق طاهر الزاوي وزميله، المكتبة الإسلامية.

١٣٣- **نيل الأوطار**، الشوكاني، تحقيق محمد صبحي حلاق، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

١٣٤- **وحي الرسالة**: الزيات، دار الثقافة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٩٧٢هـ.

١٣٥- **وحي القلم**: الرافعي.

* * *